رواية

أشباح

د. جابر القصاص

رواية

أَشْبَاح

بقلم

د. جابر القصاص

إهداء

إلى ابني الحبيب/ عمر . .

الربيع الغابر، وجرح العمر النازف،

لا زلتَ معنا . .

وستظل . .

وستظل روحي تعانق ذكراك

إلى أن نلتقي،

عزائي: أنك في مكان أفضل الآن!

جابر

٢٥/ ١٢/ ٢٠٢٣م

الفصل الأول

- صَـــرْخَــــة -

على لسان (عُمَـر)

(١)

إنها لوحة (إدفارد مونك) أو (مونش)..

تحديدًا (الصرخة).. هل سمعت عنه أو عنها؟

بالطبع لا.. رغم أنك تتظاهر طيلة الوقت بأنك تعرف كل شيء، لكنك في الحقيقة لا تعرف شيئًا على الإطلاق..

السماء حمراء بلون الدم، فيها تموجات بألوان أخرى، لكن يظل اللون الأحمر هو الطاغي على بقية الألوان.. هناك جسر يشرف على البحر، عرفت – فيما بعد– أنه خليج (أوسلفورد) في مدينة أوسلو بالنرويج، لون الماء أزرق قاتم، لكنه أيضًا عبارة عن خطوط وتموجات تشترك فيها ألوان أخرى، ويبقى اللون الأزرق القاتم هو الطاغي على بقية الألوان.. على الجسر رجلان يعتمران القبعات، وفي واجهة اللوحة شخص يضع يديه على جانبيه وجهه، وقد اتسعت عيناه، وانفتح فمه كأنه يصرخ.. لا، إنه يصرخ بالفعل، لهذا سميت اللوحة باسم (الصرخة)!

لا أستطيع أن أفسر اللوحة، فلست فنانًا ولا ناقدًا.. لكن بالتأكيد من ينظر إلى اللوحة سيطالع معاني الرعب والخوف الشديد والألم النفسي، كما سيطالع الوحدة بشكل إبداعي مكثف مؤثر.. فالوجه قد استطال وتشوه من شدة الخوف، وملامح الوجه مطموسة نسبيًا كالعينين والحاجبين والأنف، وأما الفم فهو مفتوح ويصرخ، والعينان شاخصتان بشكل مبالغ فيه، واليدان تغطيان الأذنين، كما أن هناك الجسر

المرتفع، والهاوية تحته، يعطيان انطباعًا مقبضًا، أما السماء، والطبيعة المحيطة، والألوان الصارخة والقوية والداكنة، فهي تضفي أجواء خاصة كابوسية وغريبة!

كتب (مونك) في مذكراته شارحًا ظروف رسمه لهذه اللوحة: "كنت أمشي في الطريق بصحبة صديقين، وكانت الشمس تميل نحو الغروب، عندما غمرني شعور مباغت بالحزن والكآبة، وفجأة تحولت السماء إلى لون أحمر بلون الدم، توقفتُ وأسندتُ ظهري إلى القضبان الحديدية من فرط إحساسي بالإنهاك والتعب، واصل الصديقان مشيهما ووقفتُ هناك أرتجف من شدة الخوف الذي لا أدري سببه أو مصدره، وفجأة سمعت صوت صرخة عظيمة تردد صداها طويلًا عبر الطبيعة المجاورة!".

عن نفسي لا أصدق هذا الكلام، (مونك) فنان بارع، لكنه كذاب كأي فنان آخر، الفن في حقيقته ما هو إلا كذب مقنن وماتع، وكلما ازدادت قدرة الفنان على الكذب ارتفع نجمه.. وقد ارتفع نجم (مونك) بالفعل، بفضل هذه اللوحة، وربما بفضل كذبه كذلك.

(مونك) كان بائسًا، قلقا، مسكونًا بالهواجس والأفكار المؤرّقة، عندما كان عمره خمس سنوات، توفّيت أمّه بالسلّ، ثم تبعتها أخته التي لم تكن قد أكملت عامها الرابع عشر، وعندما بلغ الخامسة والعشرين مات والده، ثم لم تلبث أخته الأخرى أن أصيبت بالجنون، لتودع إحدى المصحّات العقلية.. (مونك) نفسه كان مجنونًا في اعتقادي.. جنونه

يبدو واضحًا في لوحاته: كـ "الطفل المريض"، و"مصاص الدماء"، و"الرماد"، و"الجسر"! أعرف أنه عاش حياة بوهيمية جرب خلالها الكحول والأفيون.. وفي النهاية مات صعلوكًا، لكن لوحته بيعت عام ٢٠١٢م بمبلغ مائة وعشرين مليون دولار لثري معتوه من المؤكد أنه لم يكدح ولم يشق في جمع ثروته.

هل كان (مونك) يعلم أن لوحته التي رسمها سنة ١٨٩٣م ستباع بهذا المبلغ بعد أكثر من مائة سنة؟! حتمًا لا.. وإلا كان مات من فوره!

– "يبدو أنك تحب الفن بشدة، ومغرم بالرسامين ولوحاتهم وحيواتهم!"

يا لك من ساذج! من قال إني أحب الرسم؟ أنا لم أرسم لوحة في حياتي، وحتى في دراستي كنت أطلب من إخوتي وزملائي أن يرسموا لي ما هو مفروض عليّ رسمه، الرسم صورة من صور التزييف.. الفن كله –بكل ألوانه– تزييف للواقع، وإن كان أصحابه يزعمون أنه محاكاة، لكنهم كاذبون.

– "لماذا إذن أنت مهتم بـ (مونك) هذا وحياته وما يرسمه؟!"

سؤال خاطئ أيها الطبيب.. الصواب: لماذا هو –أعني: (مونك) نفسه– مهتم بي أنا، ويطاردني في منامي؟

هذه اللوحة أحلم بها كثيرًا، صدقني حلمت بها من قبل أن أراها فعليًا في عالم الحقيقة، بدأ هذا الحلم معي منذ سنوات، لا أدري متى تحديدًا، وتكرر مرارًا على فترات متباعدة، تكراره هو ما لفت انتباهي، وإلا فالحلم نفسه ليس مبهجًا ولا مخيفًا على النحو الذي يجعلني أتذكره..

حتى كان ذلك اليوم حين رأيت صورة لتلك اللوحة بإحدى المجلات، وعرفت أنها لوحة قديمة، لرسام لم أكن قد سمعت عنه من قبل! وتعجبت كثيرًا من هذا.. كيف لإنسان أن يحلم بلوحة لم يكن يعرفها ولا رآها من قبل؟

المزعج أنني ما زلت أحلم بها إلى اليوم، والحلم يتكرر على فترات متقاربة.. حتى بعد أن عرفت قصتها.. هذا ما أحتاج بشدة إلى تفسيره.. ليتك تتخلى عن دور المحقق قليلًا وتتعامل مع الأمر كطبيب نفسي يحترم مهنته!

- "لنكن صرحاء مع بعضنا البعض.. ليس كل الأحلام ذات معنى.. وليس كل الأطباء النفسيين يكترثون للأحلام!"

***

(٢)

هذا الطبيب يزعجني.. نظراته - نبرات صوته - كلماته - طريقته في التحدث، وحتى في الإصغاء- تلك النظارة السخيفة التي يضعها على عينيه.. كل شيء فيه يزعجني!

لماذا أنا هنا أصلًا؟

أنا قاتل.. إرهابي.. مجرم.. سفاح.. يفترض أن يكون مكاني السجن، أو المشنقة، لا مصحة نفسية، كأنهم يقدمون لي منفذًا للنجاة من العقوبة، وكأنهم يؤمنون بأن العقوبة لصغار المجرمين فقط، أو لعلهم لا يتصورون أن الجرائم الكبرى قد يرتكبها أشخاص عقلاء!

نعم هو كذلك.. فعندما يقتل الرجل زوجته، يعاقبونه.. لكن حين يقتل زوجته، وأطفالها، ويذبح حتى القطة التي كانت تؤثرها على سائر العالم، يتشككون في سلامة عقله، ويشتبهون في كونه مجنونًا!

هم الآن لا يتصورون أن شخصًا عاقلًا قد يفعل ما فعلت، لهذا أرسلوني إلى هنا، لألتقي بهذا الطبيب السمج، ذي السمات الخانقة!

– "بداية: أنت هنا لنتأكد من كونك مؤهلًا للمحاسبة على جرائمك التي اعترفت بها أم لا.. ومطلوب منا أن نحدد أهليتك من عدمها..

ثانيًا: أنت محق في بعض الجوانب: الجرائم الكبرى –كالتي اقترفتها أنت– يصعب الاقتناع بأن أصحابها مسئولون عن تصرفاتهم، أو (عقلاء) كما تسميهم أنت، لكنك مخطئ في الخلط بين القاتل والإرهابي والسفاح، وإن كان يصدق عليهم جميعًا وصف (مجرم).. لكن التفرقة واجبة، وتكشف لنا الدوافع والبواعث التي كانت لديهم عند ارتكاب جرائمهم.."

إنه يتحذلق.. يظن أنه –لكونه طبيبًا– يعرف أكثر مني، كل الأطباء نرجسيون، يظنون أنهم صفوة الطلاب في فترة الدراسة، لأنهم حققوا أعلى مجموع أهّلهم لدخول كلية الطب، لكنهم مجرد ببغاوات، آلات تحفظ ما تدرسه وتفرغه ببراعة في ورق الإجابة، دون أن تعيه جيدًا.. التفوق الذي حققوه بالدارسة ليس مقياسًا للذكاء ولا النبوغ.. وإلا ما كان هناك طبيب ناجح وطبيب آخر خائب! ولأصبحوا جميعًا عباقرة!

أنا أعرف أكثر منه، وقرأت أكثر منه، وأتفهم الحياة أكثر منه، هو لم يسمع عن (مونك) ولوحاته سوى مني أنا، لكنه يتفوق عليّ ببعض المصطلحات العلمية المتحذلقة فقط لا غير!

- "ألا تسمونهم أنتم (عقلاء) أيضًا؟"

- "قد تندهش حين تعلم أننا في مجال عملنا لا نستخدم الألفاظ المعروفة، مثل: (مجنون) - و(عاقل).. إلى آخره، وإنما نستخدم ألفاظًا أخرى مثل: ذهان - عصاب - اضطراب - هيستريا - هلاوس - وهكذا.. بالإضافة إلى بعض الألفاظ الأجنبية، مثل: (بارانويا)- (سكيزوفرانيا)..... إلخ"

حسنًا لا أريد أن أعرف ألفاظكم ولا مصطلحاتكم، لكني أريد أن أعرف ما الفارق بين القاتل والسفاح والإرهابي، لأعرف نفسي: أيهم أنا؟

- "القاتل: هو من يرتكب القتل في ظروف معينة، ولأسباب شخصية قد تبدو مقبولة له، وإن كانت غير مقبولة للمجتمع، كالانتقام من شخص سبب له الأذى البالغ، أو حتى لأسباب غير مقبولة له ولا للمجتمع، كقتل شخص من أجل الاستيلاء على أمواله مثلًا.. المهم أن القتل ليس مقصودًا بذاته، وإنما دائمًا له مبرر، وسواء كان مقتنعًا بسبب القتل أم لا، فهو في النهاية يشعر بأنه ارتكب جريمة شنيعة، ويشعر بالندم الشديد. ويتمنى لو لم يكن ارتكب تلك الجريمة!

أما السفاح: فهو شخص يقتل بكثرة، ولأتفه الأسباب، أو حتى دون الحاجة إلى أسباب، بل إنه قد يختلق أسبابًا لنفسه تبرر القتل، فالقتل

هو المقصود بذاته، وبالطبع لا يشعر بتأنيب الضمير، لأنه يتلذذ به، ولا يشعر بأنه يرتكب أية جريمة..!

أما الإرهابي: فهو يقتل من أجل مبدأ ما يؤمن به، ديني أو سياسي أو عرقي، ويريد أن ينصره، إنه يشعر بأنه يناضل من أجل قضية ما، وبالتالي هو لا يشعر بتأنيب الضمير وهو يقتل، بالعكس، إنه يكون في قمة الشعور بالرضا، لأن القتل من ضروريات هذا النضال!"

حسن.. أعرف كل هذا أيها الوغد المتحذلق، ظننتك ستقول شيئًا جديدًا لا أعرفه، لكني حتى الآن لم أصل إلى شيء.. أيهم أنا؟

ربما أنا قاتل لأني قتلت (منى) بسبب خيانتها لي، لكني لا أشعر بالندم، ولا بأنني ارتكبت جريمة، بل أومن تمامًا بأنها كانت تستحق ذلك!

مهلًا.. أنا قتلت (سارة) لا (منى)، إنها متشابهتان في كل شيء، ما عدا الأسماء!

كما أني قتلت الآخرين بلا سبب، وحين توجهت إلى الشرطة بقدميّ واعترفت بجريمتي، وسألوني عن السبب قلت لهم: "لأني أريد ذلك.."! وبالطبع لم يعتبروها إجابة، وأحالوني إلى مصحة عقلية ليستوثقوا من سلامة عقلي، وهذا الطبيب السمج يفترض أنه سيتكفل لهم بذلك.

البلهاء ما كانوا ليقبضوا عليّ، ولا حتى ليعرفوا هوية المجرم الذي يبحثون عنه، لولا أني أرحتهم وقدمت إليهم بنفسي، وأعطيتهم اعترافات كاملة بجرائمي، لعل هذا سبب كافٍ لجعلهم يشتبهون في جنوني، إنهم

لم يعتادوا فكرة اعتراف المجرم بجريمته من تلقاء نفسه، دون تعذيب أو إكراه! العاقل في نظرهم هو من يرتكب جريمته ويفر بعيدًا، وإن توصلوا إليه ينكر تمامًا أنه فعل شيئًا، أما من يأتيهم بقدميه ليعترف على نفسه فهو بالتأكيد مجنون!

أنا لا أشعر بأي تأنيب ضمير! إذن أنا سفاح.. نعم، ربما كان هذا أصوب، لأني قتلت بلا سبب..

لا، لا.. إنه يقول إن السفاح يتلذذ بالقتل، وأن القتل معه يكون مقصودًا لذاته، أنا لا أشعر بأية لذة، صحيح أني راضٍ عما فعلت، وأعلم أن هناك أبرياء سقطوا بلا ذنب، لكني لا أشعر بتلك اللذة التي يتحدث عنها، ولم يكن قتلهم مقصودًا بذاته! لقد فعلت ما كان ينبغي عليّ فعله.

لا، إنهم ليسوا أبرياء بالمرة، وإن بدا عليهم أنهم أبرياء لأنهم بسطاء.. كم كان عددهم يا ترى؟!

- "أنت قلت بنفسك في التحقيق أن عدد القتلى يتجاوز المائتين!"

دعك مما قلت أيها الأحمق! فأنا لم أقف هناك لأحصي القتلى بنفسي، ولم أقف حتى لأراهم وهم يتمزقون، بل أخذت الأرقام من وسائل الإعلام، وأعرف يقينًا أن وسائل الإعلام تكذب، فهي تضخم الأرقام التي يحلو لها تضخيمها، وتهوّن الأرقام التي يحلو لها تهوينها، ربما هذه الحادثة تنتمي لما يخضع للتهوين، حتمًا أعداد الضحايا تفوق ذلك الرقم، كما كان هناك مصابون، لا ريب أن منهم من قضى نحبه

في المستشفى وازداد عدد الضحايا!

- "من أين أتيت بالمتفجرات؟"

هذا السؤال يصدر من محقق بالشرطة أو النيابة، لا من طبيب معالج، كأنه يريد أن يستفزني، لكنه لن يحصل على شيء، أنا أقوى منه بكثير، بدليل أنه لا يلقاني إلا وأنا مقيد بالأغلال! إنه يخشى رد فعلي.. جبان! ليس لأنه يخافني، بل لأنه يستغل قيودي ليحاول استفزازي!

أنا لست سفاحًا، رغم أني ارتكبت جريمتي بلا سبب، وراضٍ عن ارتكابي لها!

- "لماذا إذن أسلمت نفسك للشرطة؟ ألا يعني هذا أنك تشعر في قرارة نفسك بأنك مجرم تستحق العقاب؟!"

بل أسلمت نفسي لأني أريد ذلك، فقط لأني أريد ذلك!

ربما أنا إرهابي! نعم هذا أقرب!

لا.. بل هو أبعد، فأنا لا أومن بقضية أصلًا، ولم أقتل من أجل مبدأ، أنا قتلت فقط لأني أردت ذلك، ليس لأي سبب آخر.. وقتلي لـ (منى) كان بسبب شخصي، أم أنها كانت (سارة)؟

إنهما متشابهتان في كل شيء ما عدا الأسماء!

- "لماذا قمت بتفجير الهرم تحديدًا؟ إنه أهم معلم سياحي في مصر كما تعلم.. هل لهذا العمل دوافع سياسية؟ تريد ضرب السياحة في مصر؟"

مرة أخرى تطرح أسئلة تناسب شرطي أو محقق بالنيابة لا طبيب!

لن أجيب عن هذا السؤال، ولا عن أي سؤال آخر، اكتب تقريرك، وقل لهم إني مدرك تمامًا لتصرفاتي، ومسئول جدًا عن أفعالي، وأملك الأهلية للمحاكمة والمحاسبة، وضع توقيعك وأختام مصحتك ووزارتك، أنا الذي ذهبت إليهم بنفسي، وسأواصل الطريق تجاه المقصلة!

- "ألا تخاف الموت؟"

لا.. أنا أخاف الخوف ذاته..

لا أريد أن أخاف مجددًا، لقد أضعت عمري كله في خوف مستمر، ولم أصل إلى شيء، لن أخاف بعد اليوم!

***

(٣)

قال لي (منصور) بصوت واثق، وعينين لامعتين:-

- "لا توجد هناك (جنية) ولا أي شيء.. إنهم يخدعوننا.."

أضاف بصوت كالفحيح:-

- "يريدوننا أن نظل دومًا خائفين!"

ارتعدت شفتاه وهو يقول العبارة الأخيرة، بدا هو نفسه خائفًا مذعورًا وهو يقولها!

هذا عجيب! كيف يريدني ألا أخاف، وهو نفسه خائف؟ أم أنه يخاف منهم؟ ولكن.. من هم؟

(منصور) كان حاد الذكاء، أذكى من بقية الصبيان في الحي، وكنت أحب أن ألعب معه دون غيره، صبيَّيْن كنا في الثانية عشرة من عمرنا، مجرد صبيين ساذجين، نخاف –كبقية أطفال الحي– من الاقتراب من بيت (الجندي) العتيق المهجور، أقدم بيوت الحي، وأكثرها رحابة!

لم أكن أعرف أحدًا من عائلة (الجندي) نفسها، لقد رحلوا عن الحي من قبل أن أولد، بيتهم أكبر وأقدم بيوت الحي، كل البيوت الأخرى صغيرة، قديمة، كأي منطقة شعبية بمصر، حين تطالع البيوت عن بعد –وحتى عن قرب– تتوقع أنها ستنهار في أقرب وقت، لأنها عتيقة جدًا، لكن الوقت يمر منذ عقود ولم تسقط، سكان الحي نفسه منهم المقيمون باستمرار، ومنهم المتحولون، أغلب المقيمين شيوخ وعجائز كهول، كذلك الصبية أمثالنا، الشباب يفرون، لأنهم يضيقون بهذا الانغلاق، كأنهم في كوكب معزول عن العالم، يفرون للآفاق!

أعرف أن عائلة (الجندي) نفسها كانت ذات نفوذ في العهد القديم، هذا ما يبرر المهابة التي ما زالوا يحتفظون بها حتى اليوم، قال لي (منصور) وقتها:–

– "كانوا إقطاعيين، يملكون الكثير من الأموال والعقارات، ولديهم أراضٍ زراعية شاسعة ببعض الأرياف، وكانوا يستعبدون البسطاء"

لا أفهم كثيرًا من كلام (منصور)، لأنه لا يتحدث كصبي مثلنا، ماذا يعني بكلمة (إقطاعيين)، أو كلمة (بسطاء)، أو (يستعبدون)؟ ألفاظ –

كانت– بالنسبة لي مبهمة، لكنها مثيرة للشغف!

الجميع يتحدثون عن الجنية التي تسكن دار (الجندي) التي هجرها سكانها، الكبار والصغار يتحدثون، لكن الكبار كلامهم ممزوج أغلب الوقت بالسخرية والمزاح، إلا أنهم عندما يتحدثون معنا –نحن الصغار– يكونون جادين تمامًا وهم يلقون إلينا بالتحذيرات من الاقتراب من تلك الدار العتيقة، أعرف أن العفاريت تتواجد في الأماكن التي يحدث بها جرائم قتل؟ لماذا القتل بالذات؟ أليس القتل صورة من صور الموت؟

كل الناس يموتون.. منذ عامين مات جدي الذي كنت أحبه كثيرًا، لأنه يدللني، بعكس أبي الذي يعاملني دائمًا بقسوة وصرامة، كأني ارتكبت خطأ المجيء إلى الحياة بإرادتي.. إنه يعاملنا جميعًا كذلك، لا أراه إلا ساخطًا غاضبًا، لا يكف عن الزعيق والشجار والسباب طوال الوقت، ودون أسباب، بل هو يبحث عن أسباب ليحول البيت إلى الجحيم، الشيء البغيض أنه يكون كذلك معنا نحن فقط، ويكون في غاية اللطف مع الآخرين خارج الدار! مجرد رؤيته لنا تثير غضبه وسخطه، دون أن نفعل له شيئًا..

يوم مات جدي حزنت وبكيت كثيرًا، وتمنيت لو كان أبي هو الذي مات.. شعرت بأن الموت غير عادل في الاختيار، لأنه يختار الطيبين فقط.. أمي أيضًا ماتت بعد ذلك بسنوات قليلة، كانت مريضة جدًا، ربما كان أبي نفسه سبب مرضها، الطيبون فقط من يموتون، أبي لم يمت حتى هذه اللحظة!

لماذا لا تظهر أشباح لمن يموتون ميتة طبيعية، أنا أخاف الأشباح لكني واثق من أن شبح جدي وشبح أمي لن يؤذياني، وكنت سأحب شبحيهما، كما أحببتهما في حياتهما، وأثق بأنهما سيكونان شبحين طيبين ودودين!!

لم يُقتل أحد في دار (الجندي)، فمن أين جاءت الجنية التي سكنته؟! سمعت الصبية الآخرين يتحدثون بذعر عن الأمر، يقولون: إن الجنية تسكن البيوت المهجورة، العفاريت المؤذية أنواع: منها: عفاريت عبارة عن أشباح القتلى، تخرج مع دماء القتيل، وجنيات –لا أدري لماذا هم إناث فقط– يحتلون الدور المهجورة، التي لا يسكنها أحد، وثمة أنواع أخرى لم يتحدثوا عنها! إحدى هذه الجنيات سكنت دار (الجندي) العتيقة، والسبب: هجرة سكانها البشريين عنها منذ سنوات بعيدة!

لا أدري لماذا يصر (منصور) على التسلل إلى تلك الدار، ولا لماذا يصر على اصطحابي أنا معه؟ كنت أحب (منصور) جدًا، وأتبعه دائمًا، وأطيعه في كل شيء، وكان بقية الصبية يسخرون مني، ويسمونني (ذيل منصور)، في فترة ما طغى هذا الاسم على اسمي الحقيقي (عمر)!

(منصور) كان متفوقًا في دراسته، عقله أكبر من سنه، يقرأ كتب الكبار، ويعرف أشياء كثيرة مما يعرفها الكبار، ويتحدث في الأمور التي يتحدث فيها الكبار، ولا نعرف نحن عنها شيئًا.. لكن حديثه دائمًا ممتع

ومُسلّ، يحكي عن أشخاص: ملوك ورؤساء وقادة، وعن وقائع وحروب، وعن أشياء أخرى كثيرة لا نعيها، لكننا نتلذذ بالاستماع لحكاياته عنها..

كان لديّ خاطرة غريبة تجول بذهني: أن (منصور) نفسه ليس آدميًا، ربما هو نفسه عفريت صغير، ينتمي لعالم الجن الذي نخشاه، هل هناك عفريت أشقر ذو عينين خضراوين؟! لكني لم أكن أخشى (منصور)، بل كنت أحبه كثيرًا، وأتبعه دائمًا..

(منصور) كان يصر على التسلل إلى داخل دار (الجندي) المسكونة بالجن، والجميع يتحدثون عن الجنية الشرسة التي تخطف من يدخل الدار، وإن كنا لم نشهد أي حوادث اختطاف من ذلك النوع، ربما لأن أحدًا لم يفكر في اقتحام الدار قبل اليوم.. سوى (منصور)..

كنت خائفًا بشدة، ورفضت بادئ الأمر، فغضب.. بعد أيام رضخت ووافقت، لأني كنت أخشى غضب (منصور) مني..

***

(٤)

ذات ظهيرة تسللنا إلى دار (الجندي) المسكونة.. أنا و(منصور)..

لا.. بل (منصور) وأنا.. فهو القائد، وأنا التابع..

كنا نخشى أن يرانا أحد الكبار ويمنعنا، أو على الأصح (منصور) كان يخشى ذلك، بينما كنت أنا أتمناه! فرؤيتهم لنا كانت لتضع حدًا لمغامرتنا التي أخشاها بشدة!

كنت أتبع (منصور) بوجل شديد، حتى دنونا من البوابة، وكاد قلبي يثب خارج صدري من الذعر، منظر البوابة الخارجية وحده مرعب، بطرازها العتيق، وألوانها الباهتة، ونقوشها الغامضة.

كان الدرب المواجه للبوابة متسعًا على غير العادة في حارات الحي، فكلها ضيقة خانقة، الدار منفصلة عن البيوت المجاورة، تساءلت في تلك اللحظة: كيف يجرؤ سكان الدور المجاورة على العيش هنا بجانب الدار المسكونة؟

(منصور) كان له رأي آخر.. قال:-

- "سندخل من النافذة"

ولم أناقش.. تبعته بخطوات متعثرة حتى وصلنا إلى النافذة المكسورة، نافذة من الطراز القديم المميز الزخارف، التي يسميها (منصور) "أرابيسك" ولا أعلم هل هي اسمها كذلك فعلًا، أم أن (منصور) هو من اختلق هذا الاسم من قريحته، إنه يعرف أشياء كثيرة، بينما أنا جاهل.. جاهل!

مد (منصور) يده من الكسر ليفتح مزلاجها، انزعجت كثيرًا لمنظر يده وهي تندس بالداخل، تخيلت شيئًا ما سيمسك بها ويجذبها بقوة، ارتعد قلبي أكثر..

انفتحت النافذة، ووقف (منصور) ينظر إلى داخل الدار الخاوية سوى من الأثاث! قال لي (منصور):-

- "تعال انظر.."

وأشار للداخل، تحركت بخطوات بطيئة لأقف خلفه، نظرت للداخل بصعوبة، لم أر شيئًا سوى قطع أثاث مغطاة بملاءات يخفي لونها الغبار المتراكم، وبضع مزهريات وأوانٍ عتيقة جدًا، وصور معلقة على الجدار لا أرى شيئًا فيها.

الملاءات المغبرة التي تكسو الأثاث بدت لي أشبه بأكفان الموتى داخل القبور.. سبق أن شاهدت أكفان الموتى داخل القبور حين دفنوا جدي منذ عامين، وكنت أقف قريبًا أنظر بوجل.. لكن وجلي من مشاهدة ما بداخل مقبرة جدي كان أقل كثيرًا مما أشعر به الآن وأنا أطالع ما بداخل تلك الدار المسكونة..

أنا خائف.. خائف، أرجوك! لنكتفِ بهذا ونبتعد الآن يا (منصور)!!

لكن (منصور) مصمم على إتمام المغامرة!

وقفت أنظر من النافذة إلى داخل الدار.. لم أستوعب الكثير من المرئيات بالداخل، لأن نظراتي نفسها كانت خائفة، مذعورة! وعيناي تلوذان بالفرار من تلك المرئيات دون جسدي..

سمعت صوت (منصور) باردًا كالثلج وهو يقول لي:-

- "سندخل الآن.."

ومد يده ليجذبني خلفه..

فجأة سمعت صوتًا بالداخل.. فطاش عقلي، وكاد قلبي يثب من صدري!! لا أعرف أي صوت تحديدًا، ولا أعرف هل كان صفيرًا أم زمجرة غاضبة، أم زفير أنفاس.. ولم أنتظر لأتبين!!

فقط أعرف أني فقدت سيطرتي تمامًا على نفسي، فصحت مرتعبًا:-

- "ثمة أحد بالداخل."

ودون أن أنتظر ردًا من (منصور) لاذت قدماي بالفرار بأقصى سرعة، وذراعي انفلتت من قبضة (منصور)..

أعرف أنه ظل يناديني كي أعود، ربما شتمني، ربما نعتني بالجبان، ربما ....! لكن خوفي هذه المرة كان أقوى من اتباعي لـ (منصور) ومن حبي إياه، ولم تمض لحظات حتى كنت في منزلي أرتجف هلعًا، وأتوارى من الآخرين كي لا يروا ذعري وارتعاد فرائصي.

استغرقت وقتًا طويلًا من الذعر والارتعاد حتى انتبهت إلى الحقيقة الغائبة: أن (منصور) لم يتبعني.. لقد فررتُ أنا وحدي.. وبقي (منصور)!!

***

(٥)

منذ أيام سألني (منصور):-

- "هل سمعت عن (علي بك الكبير)؟"

بالطبع لا.. أنا لا أعرف شيئًا يا (منصور) سوى ما تحكيه أنت لي، أنت تعرف كل شيء.

حكى لي (منصور) حكايته، كان (علي بك الكبير) يحكم مصر في زمن ما، ولكنه كان مجرد والٍ عند حكام أكبر منه، موظف لا أكثر، يمكنهم خلعه وتعيين آخر بدلاً منه متى يحلو لهم.. أراد الكبير أن

ينفرد بحكم البلاد، ويستقل عن الكبار، اعتمد على رجال يثق بهم، منهم شخص اسمه (أبو الذهب)، هو الذي رباه وعلمه وقربه منه، خاض (الكبير) معارك عديدة في جهات كثيرة، وكان (أبو الذهب) خير سند له، لكن في النهاية خانه وأسلمه لأعدائه الحكام الكبار الذين أراد أن يستقل عنهم.

قُبِضَ على الكبير كأسير حرب وجيء به إلى (أبي الذهب)، الغريب أن الخائن (أبو الذهب) أحسن معاملته، بل انحنى له، وقبل يديه ورجليه، وأمر بعلاجه من جراحه في قصر فاخر!

هل ظن بذلك أنه يكفر عن خطئه، ويمحو إثم خيانته؟ وهل يكفي ذلك لمحو ذلك الإثم؟! على كل حال مات (الكبير) متأثرًا بجراحه، ولم يُجدِ معه علاج، مات مقهورًا من الهزيمة ومن الخيانة التي تعرض لها معًا!

لماذا حكيت لي هذا يا (منصور) قبل أن نخوض مغامرتنا المرعبة بأيام قليلة؟ هل كنت تتوقع خيانتي لك، وأردت أن تحذرني منها قبل أن تحدث؟! للأسف تحذيرك لم يفد معي، وخنتك وفررت كأي جبان، كان ينبغي أن تتوقع هذا مني، ماذا تنتظر من تابع غبي جبان مثلي؟

في المساء سألت عن (منصور)، وعرفت أنه بخير.. ورغم فرحي بنجاته انقبض قلبي من التفكير في موقفه مني، لقد خذلت (منصور) في الوقت الذي كان فيه يحتاجني إلى جواره.. خذلته.. كيف أنظر في

وجهه بعد اليوم؟ بل كيف سينظر لي هو؟ وهل سيعذرني؟ أم سيظل غاضبًا مني؟ وكيف أكفر عن خطيئتي وأجعله يغفر لي جبني؟

الحقيقة اليقينية بالنسبة لي أني لا أستطيع الاستغناء عن (منصور) أبدًا!

وظلت هذه الهواجس تلاحقني لفترة، لكن بعد ذلك برز مكانها تساؤل جديد زاد من شعوري بالانقباض: ماذا فعل (منصور) بعد فراري؟ هل أكمل المغامرة ودلف إلى الدار وحده، أم تأثر بذعري وتراجع؟ هل استطاع أن يفعلها وحده؟!

في البدء كنت خجلًا من لقاء (منصور)، وأتحرج من لقائه، لكن التساؤل الثاني جعلني في حاجة ماسة للقائه.. وتغلب فضولي على تحرجي سريعًا، وحين التقيت بـ (منصور) نسيت حتى أن أعتذر له عن جبني وفراري.. فقط سألته بصوت متعثر:-

- "هل دخلت؟"

لكنه لم يجب.. فقط نظر إليّ وابتسم ابتسامة غامضة! كررت السؤال أكثر من مرة.. وفي كل مرة لا أحصل إلا على تلك الابتسامة الغامضة! حاولت أن أخمن، لكنني فشلت تمامًا في الوصول إلى جواب..

كنت بحاجة ماسة للحصول على المعرفة! حتى فوجئت ذات مساء بـ (منصور) يأتيني ليقول لي:-

- "مشكلتك أنك خائف دومًا، خائف بالرغم من أنك لا تعرف شيئًا، يفترض بك ألا تخاف لأنك لا تعرف، الخوف يصيب من يعرف فحسب، ليس من لا يعرف! للأسف لن أكون هنا لأجعلك تعرف، أو حتى لأجعلك لا تخاف.. لقد انتهى كل شيء لي هنا، غدًا سنغادر!"

عرفت فجأة -وبعد مشقة- أن (منصور) جاء ليودعني.. سوف ينتقل مع أسرته غدًا إلى مكان آخر بعيد، سألته بلوعة وانزعاج:-

- "أين ستذهبون؟"

أجاب بعدم اكتراث:-

- "محافظة أخرى.. مكان آخر بعيد عن هنا، لكنه يشبه هذا المكان، كل الأماكن ها هنا متشابهة وإن بعدت"

كالعادة يصر على أن يجعلني حائرًا لا أفهم شيئًا.. كنت أشبه بالعاشق الذي يعاين رحيل محبوبته، شعرت بغصة قاتلة، وأجهشت في البكاء، ورجوت (منصور) ألا يتركني، لكني كنت أعلم -كما كان يعلم هو- أن الأمر ليس بيده.. هو مجرد صبي في الثانية عشرة، لا يملك القرار، وكنت أجد صعوبة في التصديق بأن (منصور) مجرد صبي مثلنا! لكنها أصبحت حقيقة واقعة أمامي الآن..

رحل (منصور) وأسرته عن الحي، وبرحيله شعرت أني فقدت شيئًا ما لا يمكن تعويضه، لقد فقدت أحاديثه التي كنت لا أعي إلا القليل منها، ومع ذلك كنت أحبها، رحل بابتسامته الغامضة، ونظراته النفاذة، ونبرة صوته العميقة التي تخفي الكثير!

رحل (منصور) لكن بقي السؤال قابعًا في ذهني وفي وجداني: هل فعلها (منصور) ودخل دار (الجندي) المهجورة؟ وظل السؤال حائرًا بلا جواب، لم يغب عني أبدًا، كما لم تغب عني ابتسامته الغامضة!! وظلت دار (الجندي) المسكونة تمثل لي الإرث الباقي من (منصور) !!

ولم يخطر ببالي أبدًا أن هذا الإرث يوشك على الزوال!!

***

(٦)

في البدء فوجئنا بعربات النقل الضخمة تراصت أمام دار (الجندي) لنقل ما بها من أثاث إلى مكان آخر، وقفت مع بقية أهل الحي نطالع عملية تفريغ البيت من محتوياته، وسمعت الكبار يتحدثون عن هدم الدار، وإقامة بناية أخرى فاخرة مكانها، لكني كنت مهتمًا بشيء آخر تمامًا.. هؤلاء الرجال الذي يدخلون الدار، ثم يخرجون حاملين قطع الأثاث، ألم يروا (جنية) بالداخل؟ ألم تظهر لهم؟ ألم تحاول إيذاءهم؟

لا يبدو على ملامحهم أي ذعر، أو قلق! يعملون بصمت، ويتبادلون بضع كلمات تتعلق بالحمل والإنزال، بجدية تامة، لا خوف فيها ولا توتر من أي نوع! أم أن الجنية تخشى الرجال الكبار؟!

بعد أيام أقبلت معدات ضخمة كثيرة، ذات أشكال مختلفة، احتلت ساحة الحي الضيقة، معدات للهدم، ومعدات للرفع، ومعدات للحفر، وبدأت جميعها عملها في هدم البيت وإزالته من الوجود، ووقف الصبية –وأنا بينهم– يتأملون تلك المعدات، ويختلفون حول أسمائها ووظائفها،

ووقفت أنا أنتظر الجنية التي ستخرج لتهاجم المعدات، وتدافع عن وجودها!

لكن الجنية لم تخرج، حتى أزيل البيت تمامًا، وأصبح أثرًا بعد عين، وبهدم تلك الدار زال كل أثر مادي لـ (منصور)، ولم يبق لي منه إلا ذكريات محفورة بعقلي الصغير، تقاوم الزمن، وسؤال حائر بلا جواب!

ولم تمض أشهر قليلة حتى ارتفع مكان الدار بناء شاهق، لا يمت للدار القديمة بصلة، كل شيء فيه حديث، حتى السكان الذين توالوا على سكناه مختلفين عن بقية سكان الحي العتيق.. ورغم ذلك ظل مخيفًا بالنسبة لي!!

(منصور) كان محقًا، لم تكن هناك أية جنية، لكني لم أعرف بعد كيف عرف (منصور) ذلك؟ هل فعلها ودخل الدار وحده؟!

ولم أعرف إجابة السؤال إلا بعد عشرة أعوام!

***

(٧)

- "بطاقتك!"

اللهجة الصارمة، النظرة الحادة المستريبة، سمات مشتركة بين جميع رجال الشرطة على اختلاف رتبهم!

ها هي بطاقتي.. المهنة: طالب، لقد تركت دراستي الجامعية منذ عامين، لكني لم أزل مقيدًا بالجامعة كطالب في السنة الأخيرة، يفصلني عن الليسانس مادة واحدة، رسبت فيها مرة واحدة، ورفضت أن أدخلها

ثلاث مرات تالية، أعمل بمحل ملابس جاهزة، فقط من أجل قضاء أطول وقت خارج المنزل، والخلاص من توبيخ والدي وسخطه اللذين لا ينقطعان أبدًا..

- "اركب!"

ماذا؟! يشير إلى عربة الشرطة التي نسميها (البوكس)، التي تقل المقبوض عليهم.. ماذا يعني هذا؟ لم يعطوني فرصة للتساؤل، الأيادي الغليظة الصارمة أمسكت بي، ودفعتني دفعًا دخل السيارة، لأجد أمامي آخرين مثلي.

- "ماذا فعلت لتقبضوا عليّ؟"

لم أحصل على جواب سوى الأمر بالصمت، مصحوب بنظرات صارمة غاضبة، هؤلاء القوم غاضبون دون سبب، لكني ما زلت بحاجة لأن أفهم: ماذا فعلت ليقبضوا عليّ..

الساعات التالية كانت قاسية جدًا، نقل بالسيارة إلى قسم الشرطة، احتجاز في زنزانة ضيقة مظلمة وسط عشرات الأجساد الأخرى، المساحة تضيق عن عدد تلك الأجساد، لا مكان للتمدد، بالكاد هناك مكان للجلوس، تحصل عليه بعد عناء، لماذا أنا هنا؟ لا إجابة..

لكني لست الوحيد الذي يطرح هذا السؤال!

في الزحام يزداد الشعور الخانق، تشعر بأن الأجساد التي حولك تجثم فوق صدرك، والهواء راكد كأنه غير موجود، تجد صعوبة في التنفس، وفي التحدث، لكن الصمت هو الآخر يجثم على صدرك،

ويضيق أنفاسك، فتظل تبحث عن الكلام، وأنت تعرف أن لا جدوى من الكلام.

في الظلام تتجسد المخاوف والهواجس، وتتكاثف التساؤلات الحائرة بلا جواب، وتتبدل كوجوه الأشباح، كان السؤال المهيمن هو: ماذا فعلت؟ الآن حل محله سؤال أكثر إزعاجًا ورهبة: ماذا سيفعلون بي؟ قد تجد إجابة عن هذه التساؤلات، لكنها تكون أكثر إزعاجًا وصدمة من الأسئلة نفسها.. كانت هناك أصوات مبعثرة تصل إلى أذني، بعض الكلمات ظلت تتردد في مسامعي من القابعين في المكان الضيق حولي: "طوارئ".. "اشتباه".. أنا أسمع عن هذه الكلمات عادة دون أن أفهم معناها، لكني في الساعات الأولى عرفت ما كنت أجهله: إنه قانون يتيح لهم اعتقال من شاءوا دون أن يكونوا قد جنوا ذنبًا سوى أن وقعت أبصارهم عليهم! وقد وقع بصرهم عليّ.. وعرفت أيضًا أن هذا القانون يحكمنا منذ عهود بعيدة..

لم أكن أعرف شيئًا عن هذه الأمور.. أنا مجرد مواطن بسيط خانع، لا يقول (لا) أبدًا.. أحلامي بسيطة جدًا، لا.. الحقيقة أنني لا أحلم بأي شيء على الإطلاق، بالأمس البعيد كنت أحلم بفتاة أحبها وتحبني، وأعيش معه تلك الأحاسيس النقية الجميلة، ثم تبدد الحلم، عرفت (سارة) و(منى) فكفرت بما يسمونه الحب!

بالأمس القريب كنت أحلم بالتخرج من الجامعة، والحصول على وظيفة ما، وبناء مستقبل جيد، ثم عرفت د. (فريد) –أستاذ التاريخ–

فتبددت هذه الأحلام هي الأخرى.. ولم أعد حلم بشيء على الإطلاق!

الحياة النسبة لي واحدة من تلك المباريات التي يطلقون عليها "تحصيل حاصل"، مباريات نتيجتها لا تعني أحدًا، مجرد كرة تلعب، ولاعبين يركضون وراءها بلا اهتمام، وبلا هدف، هكذا كنت أحيا.. أخرج من للبيت صباحًا لأعمل، وأعود آخر المساء لأنام، لا أطلب شيئًا، ولا أشارك بشيء سوى العمل، ماذا سيحدث بالغد؟ سؤال لا يشغلني أبدًا.. بل إنه حتى لا يعنيني إن كنت أتقاضى أجري أم لا!

في الظلام تتكالب الذكريات، (منصور) الذي رحل، دار (الجندي) التي هدمت، (سارة) التي تلاعبت بي ومضت، أم أنها (منى)؟ إنهما متشابهتان في كل شيء عدا الأسماء.. أفر من تلك الذكريات لأسقط في شراك أسئلة أكثر إرعابًا عن المجهول الذي ينتظرني وأنا هنا!

أتذكر أفلامًا كنت أشاهدها بالتليفزيون وأتأثر بها ثم أنساها.. أنا الآن أخوض ذات التجربة، لم يخطر ببالي أني سأخوض مثل هذه التجربة أبدًا.. نحن نشاهد ونسمع عن الحوادث التي تقع للآخرين يوميًا، هذا الذي غرق في البحر، وذاك الذي صدمته عربة أو قطار .... إلخ.. لا يخطر ببالنا على الإطلاق أننا قد يحدث لنا مثل هذا، ونحن نسبح، أو حين نعبر الطريق، هذه أشياء تحدث للآخرين فقط، لا نحن.. هناك من يموت يوميًا، من الأقارب.. من الجيران.. من الأصدقاء.. ولا يخطر ببالنا أننا سنموت نحن كذلك، الآخرون فقط من يموتون، ولا نفيق إلا على رؤية ملك الموت أمام أعيننا!

الآن أخوض تجربة لم أتصور مطلقًا أنها ستحدث لي، لأجد نفسي ملقى بين عشرات الأجساد في زنزانة مظلمة ضيقة، أتساءل عن مصيري برهبة وفزع، ولا أجد الجواب، وأسمع من يغمغم بأنهم قد يطلقون سراحنا بعد أن يستوثقوا من أننا ننتمي لفئة المواطنين الخانعين، الذي يقبلون بأي شيء، ولا يعترضون على شيء، ولا يناقشون أو يستفسرون عن أي شيء.. لكن متى يحدث هذا؟

أنا كذلك فعلاً، لكن كيف أجعلهم يعرفون؟ لقد ألقوا بنا هنا وتركونا، بل يبدو أنهم نسوا أمرنا تمامًا، وما عادوا يكترثون بنا!

الوقت يمر ببطء شديد، والظلام الخانق يزداد ثقلًا، لا أحد يعرف أنني هنا، انقطعت صلتي بالجميع منذ زمن، ما عاد لي أصدقاء، حتى إخوتي انعزلت عنهم، لا أظن أنهم سيشعرون أصلاً بغيابي، بما فيهم أبي، حتى لو عرف لن يفعل شيئًا سوى السخط واتهامي بأني صرت مجرمًا، وأنني أستحق ما يحدث لي.. ليس لي حبيبة تنتظر اتصالًا مني، وكلمات غزل واشتياق، أنا وحدي هنا في هذا العالم! لن يشعر بي أحد!

ومع ذلك كلما فتح الباب انتبهت، لعلهم جاءوا لإطلاق سراحي، لكنهم لم يبالوا بي، والباب كان يفتح فقط ليخرجوا أحدًا، أو ليضيفوا مزيدًا من الأجساد إلى المساحة المظلمة الضيقة، ذات الهواء الراكد..

لا أدري لماذا تذكرت في تلك اللحظات (سارة)! نعم هي (سارة).. يبدو أنني استنفذت كل الذكريات والتساؤلات والحوارات الداخلية مع

مرور اليوم الأول لي في هذا الحبس.. نسيت حتى أني لم آكل ولم أشرب، منذ قبضوا عليّ حتى الآن، وتذكرت فقط (سارة)! لا شيء سواها!

العينان العسليتان الساحرتان، الوجه الناصع المستدير، الابتسامة العذبة الخجول، الصوت الساحر الذي يحملني إلى تلك الآفاق البعيدة، حيث تتراقص النجوم، أنا وهي فقط.. الحلم الذي لم أجسر على الحلم به وإذا به يتحقق فجأة بظهورها في حياتي!

عندما رأيت (سارة) أول مرة شعرت بخوف غريب، من الطبيعي أن يعجب شاب بفتاة جميلة من أول نظرة.. لكن هل من الطبيعي أن يخافها؟!

لنكن –نحن الرجال– صادقين مع أنفسنا.. نحن لا يعنينا من المرأة سوى الجمال الخارجي، وأحدنا يكون مستعدًا لبذل كل ما يملكه من أجل الحصول على نظرة أو ابتسامة من امرأة حسناء.. لا يعنينا في المرأة أن تكون مثقفة، أو مهذبة، أو ذات خلق ودين.. أحدنا يكون مستعدًا للاقتران بامرأة جميلة ولو كانت عاهرًا.. ثم من بعد الجمال تأتي الأموال، لا بأس بامرأة قبيحة تمتلك الثراء المادي، قد يجعل هذا بعضًا منا يتغاضون عن الجمال.. ولهذا تجد البعض منا يقبل على الزواج من العجائز الثريات!

(سارة) لم تكن ثرية، لكنها كانت فاتنة.. فاتنة جدًا.. أجمل فتاة وقع عليها بصري حتى هذه اللحظة، وأحسب أني لو عشت مائة عام أخرى

لن يقع بصري على من تماثلها، فضلًا عمن تفوقها جمالًا وفتنة.

جمالها جعل الكثيرين يتهافتون عليها بغية الحصول على صداقتها مبدئيًا، تمهيدًا لما بعد الصداقة، لكني لم أفعل، بل الحقيقة أنني كنت أخافها.. لا أعلم سر هذا الخوف، أو من أي شيء تحديدًا.. لكني مكثت أيامًا –بل أسابيع– أراقبها عن بعد، وأخشى بشدة لو التفت نحوي ولو مصادفة.

كانت (سارة) قد انتقلت حديثًا من جامعة أخرى، لتكون معنا بنفس الكلية والقسم، وسرعان ما انضمت إلى رفقتنا ووجدت ترحيبًا من الجميع، الفتيات والفتيان، لم يخطر على بالي أنها ستكون لي أنا من دون الجميع!

أنا دوافعي معروفة للوقوع في غرام (سارة).. لكن ماذا كانت دوافعها هي للوقوع في غرام شخص مثلي؟!

على كل حال لم يدم الأمر طويلًا، امتحانات الليسانس، نجاحي كان يبدو مضمونًا، لا سيما في مادة التاريخ، مادة الدكتور (فريد)، النتيجة ظهرت.. راسب في مادة التاريخ (ض. ج)..

مادة الدكتور (فريد)!!

صدمة.. تساؤل.. لماذا؟.. كيف؟! الإجابة عند دكتور (فريد) فقط:-

- "لأنك لم تكن تستحق النجاح"
- "كيف هذا؟ أنا ...."
- "لست أنت من يقرر.. بل أنا!"

النظرات الصارمة، الصوت الصارم، الملامح الصارمة، كل شيء صارم، الواقع أكثر صرامة، د. (فريد) كنت أعتبرك مثلي الأعلى! تمنيت أن أكون مثلك أنت دون غيرك.. لماذا فعلت هذا؟ أنت أيضًا كنت تعتبرني تلميذك النجيب، ما الذي حدث؟

الكل يتغير.. (سارة) تغيرت أيضًا، اتصالات لا ترد عليها، وإن أتى الرد جاء جافًا، مشغولة.. مسافرة.. متضايقة.. لا رغبة لي في الحديث مع أحد.. من فضلك، انس ما كان بيننا.. أحد أقاربي خطبني.. من فضلك لا تتصل مجددًا!!

الكل يتغير.. وأنا ثابت كما أنا، وقد خسرت كل شيء، تركت دراستي، لم أعد أرغب في النجاح أو أي شيء، ليس لي طموح من أي نوع، مباراة "تحصيل حاصل"، وقت يمضي بانتظار النهاية، والنهاية لا تجيء، الموت لا يأتي حين تطلبه، الحبس هو الذي جاء على غير انتظار.. أنا ملقًى هنا على أمل واهٍ، يتجدد كلما فتح الباب، ويتبدد حين يغلق!

ها هو الباب يفتح من جديد، السجان ينادي:-

- "(منصور طاهر محمود)!"

تصلب جسدي حين سمعت الاسم كاملًا.. لا أعرف كثيرين يحملون هذا الاسم، ولا أظن أن كثيرين قد يشتركون في ذات الاسم.. بل لا يوجد سوى شخص واحد في العالم يحمل هذا الاسم!

صبيًا كان.. أشقر، ذا عينين خضراوين نفاذتين، وابتسامة غامضة!

وعلى ضوء فرجة الباب رأيت الملامح التي طالما افتقدتها، ولم تتغير كثيرًا رغم مرور الزمن.. إنه هو.. (منصور)!

(منصور).. صاحب السر الذي طالما تشوقت لمعرفته!!

***

(٨)

منذ عشر سنوات تقريبًا كنت ألعب مع (منصور) قرب دار (الجندي)، كان ينظر إلى الدار بتركيز غريب، وسألني في شرود:-

- "هل تعرف قصة الفلاح (عواد) الذي اشتهر بأنه باع أرضه؟"

- "لا يا (منصور).. أخبرني أنت!"

مط شفتيه على طريقة الكبار، وراح يفكر برهة، ثم قال:-

- "سمعت عنه أشياء متعارضة، قال بعضهم: إنه فلاح أبله، وقع في حب امرأة سيئة، راقصة، وباع أرضه قطعة وراء قطعة، من أجل أن يصرف عليها، إلى أن فقد كل أمواله وتركته، فأصيب بالجنون، فكان الأطفال يمشون وراءه ويقذفونه بالحجارة، ويقولون: (عواد باع أرضه يا ولاد.. شوفوا طوله وعرضه يا ولاد).. في ذلك الزمان كانت الأرض لدى الرجل مثل عرضه، من كان يبيع أرضه في قرى الصعيد أو الريف، يحمل العار كمن فرط في عرضه."

عاد إلى الصمت برهة، وأنا متشوق لسماع المزيد، ثم قال:-

- "هناك قصة أخرى يقول أبي إنها نشرتها إحدى المجلات، تقول: إن (عواد) رفض أن يتنازل عن أرضه لأحد الأمراء، فاستولى على

أرضـه بـالقوة، ولـم يكتفِ بهذا، بل تعمد هو ورجالـه أن يشوهوا سمعته، حتـى لا يتخـذه الأهالي بطـلًا، وسلطوا رعاع النـاس والأطفال بـأن يغنـوا الأغنيـة المعروفـة: (عـواد بـاع أرضـه ....)، حتـى يـشتهر بـين النـاس بذلك.. هؤلاء القوم يجيدون تشويه سمعة المعارضين لهم".

إذن (عـواد) ضـحية! فـي الحقيقـة لـم يكـن يعنينـي أمـر (عـواد)، فقـد كنت مندهشًا من الطريقة التي يتكلم بها (منصور)! ليست طريقة صبي صـغير أبدًا، إنـه يتكلم كالرجال المثقفين الـذين أراهم فـي التليفزيـون، أو أستمع إليهم في الراديو!

الآن –بعد كل هذه السنوات– أنـا أشـاهد (منصور) وقد صـار شـابًا، فكيف أصبح كلامه يا ترى؟!

كنــت محتجـزًا دون سـبب، ودون تهمــة.. محتجـزًا فقـط للاشـتباه.. أتساءل في جزع عما سيفعلونه بي، وما إذا كان هناك أمل في خروجي من هنـا، لكنهم نـادوا علـى (منصور).. كـانوا يريدون إخراجـه لسبب مـا، ربما لإطلاق سراحه، وربما لعرضـه على محقق ما، أو ربما لنقلـه لسجن آخر.. لا أعرف بالضبط..

لكنـي أعـرف أنـي لـن أستطيع الانتظـار حتـى يعـود، وقـد لا يعـود.. فهرعت مـن فـوري لأتشبث بـه قبـل أن يخطـو إلـى الخـارج.. كـان مـن الطبيعـي فـي مثـل هـذه الظـروف أن أقـول لـه عبـارات مـن نوعيـة: "(منصور) أهذا أنت؟ ألا تذكرني؟ أنا (عمر) صديق طفولتك.. لطالما لعبنا معًا.. أنا .....".. أشياء من هذا القبيل..

لكني لم أقل شيئًا من هذا، بل اندفعت أطرح عليه السؤال الحائر منذ سنوات، وتمنيت بشدة ألا يجيبني بابتسامة غامضة كما كان يفعل سابقًا:-

- "هل دخلت دار (الجندي) في ذلك النهار؟!"..

أجب أرجوك.. لقد انتظرت عشر سنوات للحصول على الجواب! وقد أجاب هذه المرة فعلاً.. نظر إليّ برهة بصمت، ثم تحدث بصوت قد ازداد عمقًا عن صوته الذي طالما عرفته:-

- "لم أفعل وقتها.. لكني فعلت مؤخرًا!"

مؤخرًا؟! بدت إجابته غريبة جدًا..

مؤخرًا متى؟ لقد هدمت الدار بعد مغادرتك بزمن يسير!!

لكنه عاد إلى ابتسامته الغامضة، وهو يقول:-

- "دار (الجندي) أكبر بكثير مما تظن!! وهم دائمًا يريدوننا أن نظل خائفين!"

ثم ذهب كالعادة ولم يعد..

انتقل إلى سجن آخر، أو إلى المشنقة.. لا أعرف.. لكني عرفت بعد رحيله -من بعض المحتجزين معنا- أنه متهم بأشياء تتعلق بالإرهاب..

(منصور) إرهابي؟!! لا يمكن أن يكون هذا صحيحًا !!

رحل (منصور) هذه المرة للأبد.. لكني ظللت طويلًا أتذكر كلماته وصوته الشبيه بالفحيح:-

- "هم دائمًا يريدوننا أن نظل خائفين!"

لكني حتى هذه اللحظة لا أدري من (هم)..

ولا لماذا يريدوننا دومًا خائفين!!

***

الفصل الثاني

- زيـــــــــف -

على لسان د. (فَرِيـــد)

(١)

(لن يكون في الدولة العنصرية الوطنية الاشتراكية شيء اسمه: قرار الأكثرية، بل سيكون فيها رؤساء ومسئولون، وتسترد كلمة "مشورة" معناها الحقيقي، فيكون لدى الرئيس مستشارون، ولكن القرارات تصدر عنه وحده!)

للمرة الألف أقرأ كتاب (هتلر)، لدرجة أني حفظته عن ظهر قلب، هذا الكتاب لا يغادر حقيبتي ألبتة، لديّ نسخة أخرى منه في مكتبي بالمنزل، ونسخة ثالثة في مكتبي بالجامعة.

زوجتي دائمًا تنظر إلى الكتاب باشمئزاز، وعبرت عن مشاعرها في مواقف متباعدة، آخرها الأسبوع الماضي حين قالت لي:-

- "لا تنس مُصحفك".

تقصد أنني أتعامل مع كتاب (هتلر) كأنه مصحف، من شدة انكبابي على قراءته، وعنايتي باصطحابه طيلة الوقت، لحسن الحظ لا أحد يعرف بشغفي بهذا الكتاب سواها، وهي لن تتحدث عن هذا مع أحد، لكني لا أدري لحسن الحظ أم لسوئه أننا لم ننجب أطفالًا، أتخيل لو أن الله رزقنا بأطفال، وأصبحوا مثل زوجتي، يا لها من كارثة!

الزواج في بلادنا يتم على طريقتين: تعارف وحب، أو ما يسمى بزواج الصالونات.. زواجي لم يتم بأي منهما، أنا لست من النوع الذي يهوى النساء، أو يسعى وراءهن، المرأة بالنسبة لي أشبه بالفراش الوثير، قد يكفل لك الراحة في حياتك، لكن حياتك لن تتوقف بدونه، ويمكنك

أن تتدبر نومك في حالة عدم وجوده.

لم أفكر في الزواج إلا بعد وفاة أمي، التي طالما كانت تقول لي:-

- "(فريد) يا ولدي.. لن أطمئن حتى أراك متزوجًا".

كنت قد دنوت من الأربعين، حصلت على الماجستير والدكتوراه، وشعرت بالوحدة، والحاجة لمن تخدمني دون مقابل، ويكون وجودها شرعيًا في منزلي، شخص يهتم بأمري دون منفعة، كانت أمي آخر من يفعل ذلك، لي إخوة وأخوات افترقوا في دروب الحياة، ومنهم من اختطفه الموت، ولا يجمعني بالأحياء منهم سوى المناسبات الخاصة، وعلى فترات متباعدة!

كانت هي وقتها تعمل بالجامعة، موظفة مسئولة عن المكتبة، متوسطة الجمال والثقافة، وكان الحوار بيننا لا يكون إلا عن الكتب، وكنت ألاحظ دومًا (دبلة) في أصبع بيدها اليمنى، مما يعني أنها مخطوبة، الخطوة التالية أن تنتقل الدبلة إلى أصبع بيدها اليسرى.. لكن ما حدث أن خلت أصابع يديها الاثنتين من أية دبلة!

(شوقي عطية) كبير الموظفين -والعالم دومًا ببواطن الأمور- أخبرني أنها فسخت خطوبتها، مشاكل بينها وبين أهل خطيبها، شخصيته ضعيفة، ينصت لكلام أهله، أمر غير مبشر لحياتهم المستقبلية.. قال لي بخبث:-

- "أنت يا دكتور ليس لك أهل.. ومنعزل عن إخوتك، لا يوجد أحد يُخشى منه"

فهمت الرسالة، ترددت قليلًا لفارق العمر بيننا، يزيد عن عشرة أعوام بقليل، لكني بعد ذلك تجاسرت، ولم يمض شهر حتى كنا –أنا وهي– نرتدي الدبلتين في اليد اليمنى، ولم يمض عام حتى انتقلت إلى اليسرى.

حياتنا هادئة، خالية من المشاعر، لكنها أيضًا خالية من المنغصات، ما يربط بيننا شعور الاعتياد فقط، اعتدت وجودها في حياتي، كما اعتادت كوني زوجها، أعرف أنني لا أروقها، وأعرف أن طموحها كان أفضل من ذلك بكثير، وأعرف أنها تشعر بخيبة في زواجنا، لكني أعرف أيضًا أنها تقبلت الوضع منذ زمن، وتجاوزت مرحلة التفكير في حياتها ومستقبلها معي، أنا عن نفسي تقبلته من اليوم الأول، وأتعايش معه بشكل جيد، لقد حصلت على الفراش الوثير، لا أرغب في شيء آخر لراحتي!

ماذا يقول (هتلر):-

- (لن يكون للأحزاب السياسية الموجودة أي شأن في العمل البناء الذي تقوم به حركتنا، إذ كيف يمكن لهذه الأحزاب أن تعمل على هدم الأوضاع الراهنة، وهي مدينة لوجودها بفساد هذه الأوضاع؟ ولا يخفى أن موجهي الأحزاب الحالية هم اليهود، فإذا لم نجد من يضع حدًا لتلاعب الشعب المختار بمقدرات شعبنا فلن يمر وقت طويل حتى تتحقق نبوءة اليهود القائلة: "سيخضع اليهودي شعوب الأرض جميعها، ويصبح سيدها المطاع".. كيف يرجى من الأحزاب البرجوازية وأحزاب

اليسار أن تقاوم الذين يوجهونها ويسخرونها لخدمة أغراضهم ومصالحهم؟!)

(هتلر) عبقري، بعيد النظر، ما زلت حتى الآن لا أعرف كيف هُزم، ولا أثق بالتاريخ الذي كتبه الحلفاء، ربما القدر وحده من قضى بهزيمة عبقري كهذا! أتصور لو أني مكانه، وأملك هذه المعارف التي أمتلكها الآن، لاتخذت ذات القرارات التي اتخذها، بما فيها الانتحار آخر المطاف! القادة العظماء لا يموتون إلا في الميدان أو يقتلون أنفسهم بأيديهم، لا بأية طريقة أخرى سوى ذاك! بالطبع لا أجسر أن أقول هذا في محاضراتي، وظيفتي كمدرس تاريخ بالجامعة تفرض عليّ الحذر في أدائها، لكني أحيانًا لا أخفي إعجابي بـ (هتلر)، ولا يعنيني أن يلحظ الآخرون ذلك، لا خطورة في الولاء لشخص ميت، انقطع أثره منذ عقود طويلة، وانهار نظامه وسلطته، في الغالب سينظرون إليّ باعتباري مجنونًا لا أكثر، وهذا يناسبني ويروقني جدًا.

- (قد يعترض معترض بقوله: إن التعصب والأنانية هما نقيصتان عالقتان باليهود، وأنه ليس جديرًا بنا أن نحذو حذوهم، وأن نستعمل نفس سلاحهم، ولكن مع أن هذا الاعتراض صحيحًا، يجب علينا أن نحارب العقيدة القائمة على التعصب والأنانية بنفس الطرق والأسلحة التي تستعملها، لأن الإرهاب لا يسحقه إلا الإرهاب!)

كم أنت عبقري يا (هتلر)!

* * *

(٢)

أعرف أن محاضرتي ليست بالماتعة، ويتغيب عنها كثير من الطلاب، وأعرف أيضًا أن اسم د. (فريد رضوان) ليس بالاسم المحبب لدى الطلاب والأساتذة على حد سواء، لكن ماذا يضيرني؟

المهم أني أحصل على راتبي كاملًا، وأن كتبي تباع، صحيح أنها لا تباع خارج الجامعة، مما جعلني أفرضها على الطلاب كمناهج دراسية وأضع أسئلة الامتحانات منها، لكن المهم أنها تباع، اسمي منقوش على أغلفتها، وأقدم نفسي للمجتمع كمؤرخ محترم، وأسكن في شقة فاخرة في أكتوبر، ولديّ سيارة جيدة، وكل من أتعامل معهم مجبرون على احترامي، بمشيئتهم أو رغمًا عنهم! ماذا أريد أكثر من هذا؟

فليكرهني من شاء أن يكرهني، وليحتقرني من شاء أن يحتقرني، لا شيء يضيرني في مشاعر الناس! أنا لست بارعًا في اصطناع شخصية جذابة محببة لنفسي، لكني بارع في اختيار مادتي التي أقدمها للناس، أنا أستاذ تاريخ، يعني مؤرخ وباحث في التاريخ، يفترض أني أحب التاريخ، وأجد فيه لذة، كنت كذلك بالفعل في مقتبل حياتي، لكني مع الوقت كفرت بالتاريخ، ولم أعد أثق به ألبتة!

الحقيقة التي أعرفها –ولا أحبذ أن يعرفها الآخرون– : أن التاريخ الإنساني كله مُزوّر، أو إن شئنا تجميل الأحكام، وتزويق الألفاظ سأقول: غير دقيق، لأنه غير مُسجّل بالصوت والصورة، وخضع في كل أحداثه ومواقفه إلى تأويلات مُختلفة، وطرق عرض متباينة، لعبت

فيها الأهواء والمصالح دورًا كبيرًا، وعملت على تزييف الوقائع، إما من الرواة أو المؤرخين أو الكُتاب، وإما من السلطات نفسها، مما جعل الوصول إلى الحقيقة المُطلقة تاريخيًا أمرًا مُستحيلًا.. وإذا كان الواقع الذي بين أيدينا الآن مسجلًا بالصوت والصورة يتم تزييفه، فما بالك بوقائع قديمة، من عهود سحيقة، دونت على هيئة نقوش بلغات ميتة غير معروفة؟ أو وقائع دونت على الرقاع والجلود بخطوط عتيقة، وحبر ناقع؟ إن من يثق بأن (خوفو) هو صاحب الهرم الأكبر، أو أن (نارمر) هو من وحّد القطرين، لا شك أنه جاهل أو مخبول!

التاريخ بالنسبة لي ليس إلا حكايات مسلية، اختلقها بعض المبدعين، وراجت على بعض البلهاء، فدونوها كوقائع ثابتة، لن تجني منها أكثر من التسلية والاستمتاع، كما تقرأ أي قصة خيالية لـ (إدجار آلان بو)، أو (ستيفن كنج)، أو حتى (يوسف السباعي).. لكن إن صدقت أنها حقائق فأنت مخبول!

بالطبع لا أستطيع أن أجهر بهذا أمام الآخرين، وإلا أبطلت وظيفتي كمؤرخ، وأهدرت مادتي العلمية، وبالتأكيد سأفقد كل شيء دفعة واحدة..

فعلتها ذات مرة، وتكلمت دون احتراز في إحدى المحاضرات، كنت أتحدث عن وظيفة (المؤرخ)، وأكدت على أن مهمته الأولى هي البحث عن الحقيقة فيما يدرسه من وقائع، ثم استنباط الدروس والفوائد من تلك الحقيقة التي يتوصل إليها، وكلتا المهمتين في غاية الصعوبة والتعقيد، فالتاريخ هو أكثر فروع العلم افتقارًا للحقيقة! فالتاريخ القديم مصدره

الوحيد تلك النقوش والحفريات والمخطوطات العتيقة، التي تكون عادة مكتوبة بلغات مندثرة، كالهيروغليفية أو اللاتينية، أو لغات حية لكن طرأت عليها الكثير من التغيرات والتجديدات، كاليونانية وغيرها، وبالتالي أصبحت معرفة الحقيقة تعتمد على الفهم الدقيق لمفردات تلك اللغات، ومعانيها ومدلولاتها الصحيحة، وهذا بالطبع مترتب على الاعتقاد بمصداقية من كتبوا تلك المخطوطات، ومن نقشوا تلك النقوش!

ولكن هل كان هؤلاء حقًا صادقين فيما كتبوه وحفروه ونقشوه، أم أنه كان يملى عليهم من ملوك عصورهم وشرطتهم؟ وهل من ترجموا تلك النقوش والكتابات كانوا يتحلون بالمعرفة الدقيقة بتلك اللغات والرموز المنقوشة؟ وقلت ساخرًا:-

- "لا أعرف رأيكم، لكن اعذروني إن لم أشارككم القناعة بأن صاحب الهرم الأكبر اسمه (خوفو)، أو أن هناك ملكة عظيمة حكمت مصر في زمان ما اسمها (حتشبسوت)! لأني لست على قناعة بمصداقية من حفر تلك النقوش التي تنص على ذلك، ولا أثق حتى بمعارف من ترجموا تلك النقوش!"

ثم تحدثت عن التأريخ في العصور الوسطى، الذي يفترض أن يكون أحسن حالًا، لأنه كتب بواسطة من شهدوا الوقائع بأعينهم، أو من نقلوا عنهم بالأسانيد، لكن حتى هذا التأريخ لا يفرح به كثيرًا، ولا يوثق بسياقاته، لأنه كان يكتب بشكل فردي، تطوعًا من كتابه، وكانوا

يسردون الوقائع وفقًا لمعتقداتهم الدينية والمذهبية، وحتى توثيق الأسانيد عندهم قائم على تلك المذهبية، ولذلك كانت سياقات (المسعودي) تختلف كثيرًا عن سياقات (الطبري) و(ابن كثير) لنفس الوقائع، لأن كلًا منهم نظر للوقائع من الزاوية التي توافق مذهبه واعتقاده!

أما في العصر الحديث فقد أصبح الأمر أسوأ، لأن الدول والحكومات هي من تكفلت بكتابة التاريخ، وتدوين الوقائع، والغلبة دائمًا للأقوى والمنتصر، وهكذا أصبح لدينا مثلًا شخص اسمه (هتلر) تم تقديمه للعالم باعتباره شخصًا مخبولًا، سفاحًا، طاغية، مستبدًا، حكم شعبه بالحديد والنار، وأقحمه في حرب عنصرية عرقية، فقط لإرضاء نرجسيته وغروره السلطوي!

تساءلتُ:-

- "التاريخ الذي كتبه الحلفاء المنتصرون يقول ذلك، ولكن هل كان (هتلر) حقًا بهذا الخبل والاستبداد والسذاجة؟ وهل قبل الشعب الألماني أن ينصاع لمثل هذا المخبول فقط بدافع الخوف منه ومن بطشه؟ وهل اجتاح الجنود الألمان أوروبا كلها، حتى سقطوا في الجليد السوفييتي، فقط لينجوا من سوط (هتلر) الملهب؟"

عدت مرة أخرى إلى السخرية:-

- "عذرًا.. إن من يعتقد بهذا السبك هو المخبول حقًا.. لا (هتلر)"

فجأة رأيت ذلك الطالب في آخر المدرج يلوح لي بذراعه، مستأذنًا للحديث، فسمحت له.. قال:-

- "إن كلامك هذا يا دكتور يعني أن كل ما درسناه وندرسه حتى هذا اللحظة مزيف، غير حقيقي، في جميع العصور على الإطلاق!"

على الرغم من أن الفتى ردد بإيجاز نفس ما كنت أقوله أنا بإسهاب، إلا أني تنبهت لما وقعت فيه، لقد تخليت عن حذري ووقعت في الفخ.

كنت مغتاظًا من ذلك الطالب، لكني عرفت أن التوبيخ سيجعل الأمر أسوأ، ليكن هدفي الآن التغطية على تهوري، وتوجيه الدفة لجانب آخر، قبل أن أفقد كل شيء.. قلت برفق مصطنع:-

- "بل معناه أننا مطالبون ببذل مزيد من الجهد للتوصل إلى الحقيقة من بين ركام الكذب والتزييف، والأهم أن نتوصل إلى منهج صحيح لقراءة الوقائع التاريخية والحكم على صحتها، والتمييز بين الصدق والكذب فيما وصل إلينا من وقائع".

لكن الفتى كان مصرًا على ترسيخ المعنى الذي تهورت وكشفته، قال معترضًا:-

- "كيف ذلك ونحن أصلًا متشككون في المصادر التي دونت تلك الوقائع؟"

كان عليّ أن أتصرف بسرعة، إنه طالب ذكي، لكنه لن يكون أذكى مني، لن أُهزم لطالب ساذج يتلقى علومه بالتلقين منذ نعومة أظفاره.. لكن مع الحفاظ على اتزاني وتماسكي..

قلت بطريقة ساخرة أضحكت الجميع:-

- "مثلما كنت أنا متشككًا من العثور على طالب نابه وسط هذا الجمع، يستعمل عقله الذي منحه الله إياه في وظيفته الأساسية: التفكير، ووجدته أخيرًا.. ما اسمك يا بني؟"

أجاب باسمه كاملاً لكن ذهني لم يتعلق سوى بالاسم الأول فقط، لأنه كل ما يعنيني.. كان اسمه (عمر).. حسن..

- "استمر يا بني.. الشك هو السبيل الآمن لليقين!"

وأنهيت المحاضرة بعد أن نجحت في تغيير دفة الحديث، إلى أن هناك وقائع صادقة بجانب الوقائع المزيفة، وأن بإمكاننا الوصول إلى الحقيقة بمزيد من الجهد والعناية والبحث بوسائل علمية..

قلت ذلك وكنت الوحيد الذي يعلم أني كاذب!

* * *

(٣)

- "كان الجندي الإنجليزي غاضبًا، يقف على جثة زميله ويطلق النار من بندقيته في كل اتجاه، حتى فرغت بندقيته من الرصاص!"

اتسعت عينا أبي حين بلغ هذا الجزء، بدا الحماس على وجهه جليًا، إنه يتمثل الأحداث كأنه يراها بعينيه تقع أمامه الآن، ويصفها لي كما يفعل معلق الكرة وهو يصف إحدى المباريات، استطرد:-

- "هنا انتهز جدك الفرصة، وخرج من مخبئه، واتجه نحو الجندي الإنجليزي بخطوات ثابتة، وهو يسدد إليه نظرة مخيفة، تبدل غضب الجندي إلى ذعر، أخذ يتراجع إلى الخلف بارتعاب، راح يتلفت حوله

ويصيح بصوت متقطع: (هيييلب!).. يعني: فليساعدني أحد.. لكن لا أحد هناك في ذلك الزقاق، سوى هذا الجندي المذعور، وزميله الطريح على الأرض، و..... جدك!"

واصل بنفس الحماسة:-

- "انتزع جدك الخنجر من جسد الجندي الطريح، لو كان الجندي الآخر متمالكًا عقله لانتزع هو الخنجر من جسد زميله، وانقض به على جدك، لكنه الخوف يلغي العقل.. انتزع جدك الخنجر، وتلاعب به في الهواء بطريقة ماهرة، جعلت الجندي يكاد يغشى عليه من الهلع، وعاد يصرخ: (هيييلب).. لكن جدك وجد أنه تلاعب به بما يكفي، وحان وقت القتل"

فجأة توقف أبي عن السرد، وتغيرت ملامحه من الحماس إلى الأسى، عاد يقول بعد برهة:-

- "للأسف.. صراخ الجندي وجد من يسمعه، في اللحظة التي كان جدك يمسح فيها خنجره من دماء الجندي الآخر دوّى في الأفق أزيز رصاصة، استقرت في ظهر جدك.. كان الأمر مباغتًا، يفترض أن تطيح الرصاصة بجدك في الهواء، وتطرحه أرضًا بجوار الجنديين القتيلين، لكن هذا لم يحدث، لقد تلقى جدك الرصاصة وظل واقفًا متماسكًا، والدم يتدفق من ظهره بقوة، واستدار ببطء ليرى قاتله.. كان يقف هناك عدة جنود إنجليز في أول الزقاق، يشهرون بنادقهم في وجه جدك.. الذي وقف ينظر إليهم بثبات، كأنه غير مصاب نهائيًا، بل

الأدهى أنه رجع يتلاعب بخنجره في الهواء بنفس الطريقة الماهرة.. كانت هذه رسالة منه إليهم أنه لن يستسلم، وسيقاتلهم بخنجره، وقد تلقوا الرسالة، وتعاملوا معها على الفور، بأن أطلقوا رصاص بنادقهم معًا في وقت واحد تجاه الهدف.."

لمعت عيناه بفعل الدموع التي يجاهد لحبسها وهو يستطرد:-

- "لا أعرف كم رصاصة أصابت هدفها، ولا كم رصاصة أخطأته، لكن أحد سكان الزقاق كان يختلس النظر من نافذته أقسم أنه ظل واقفًا والرصاص ينفذ إلى جسده، ظل ثابتًا لا يتزحزح، لدرجة أنهم هم من أصيب بالذعر، وتوقفوا عن إطلاق النار، وتراجعوا للخلف مبهوتين، ولم تسكن قلوبهم إلا بعد سقوطه.. سقط جدك.. والعجيب أن يده ظلت قابضة على الخنجر، لم تتخل عنه!"

لم تكن المرة الأولى التي يسرد لي فيها أبي قصة موت جدي، لكنه رغم ذلك يعيد السرد بنفس الحماس، وتغرورق عيناه بالدموع عندما يصل إلى هذا الجزء.

أنا عن نفسي بكيت في المرات الأُوَل، لكني مع الوقت احتفظت بالحماس وأنا أصغي دون البكاء.

- "كان جدك بطلًا.. لم تذكره كتب التاريخ، لأنها لا تذكر إلا الذين يتكلمون فقط، دون أن يفعلوا شيئًا.. لقد تحدثت كتب التاريخ عن (مصطفى كامل)، و(محمد فريد)، و(سعد زغلول)، وغيرهم، لكنها لم تذكر مطلقًا من كانوا يفعلون ولا يتكلمون.."

استعاد حماسه وهو يستطرد:-

- "جدك كان يؤمن بأن استعمال السياسة مع الإنجليز عبث، وهو الشيء الذي لم يستوعبه الآخرون الذين خلدهم التاريخ كمناضلين، كان يقول دائمًا: إذا تدخلت القوة فلا مجال للسياسة، من البلاهة أن تفكر أن تتكلم مع خصم يبطش بمن يقف أمامه، الإنجليز كانوا يبطشون بنا ببنادقهم، حتى التفاوض معنا كانوا يستعملونه بقصد أن يصرفونا عن استعمال القوة تجاههم.. كانوا يريدوننا أن نتكلم فقط، نتفاوض ونساوم، دون أن نصل إلى شيء، بينما هم يبطشون من الجهة الأخرى.. لم يفهم الآخرون ذلك فمكث الاحتلال فوق صدورنا أكثر من سبعين سنة.. لو أنهم استعملوا طريقة جدك لما صمد سبع سنوات حتى!"

سألني فجأة:-

- "لماذا في رأيك رحل الفرنسيون سريعًا بينما طال بقاء الإنجليز؟ لأننا استعملنا القوة مع الفرنسيين، وذهبنا نتفاوض بنعومة مع الإنجليز!"

رفع عيناه لأعلى وهو يختم:-

- "جدك كان هو البطل الحقيقي ليس (مصطفى كامل)، ولا (سعد زغلول)!"

كان حديث أبي مؤثرًا جدًا، جدًا.. وأعطاني قناعة فعلية بالمبدأ الذي رسخه، القوة وحدها هي التي تقهر الأشرار، لأنهم لا يستعملون معنا سواها، وهو نفس المبدأ الذي أدركه وأقرّه (جمال عبد الناصر) لكن

عجز عن تنفيذه، حين قال: (ما أخذ بالقوة لا يسترد بغيرها)!

(السادات) احتاج لإشعال حرب مع الصهاينة حتى يجبرهم على قبول التفاوض، وحين اكتفى بالتفاوض تنازل عن الكثير، وكان ينبغي أن يواصل استعمال القوة معهم، بجانب التفاوض، فلولا القوة ما كان ليحصل على شيء منهم بالتفاوض، القوة هي كلمة السر دائمًا..

كبرت مشبعًا في وجداني ببطولة جدي، تمنيت أن أكون مثله، للأسف كان بنياني ضعيفًا، أضعف من أن يستعمل القوة، لكني واسيت نفسي بأن القوة لم تعد في الذراعين، بل في الأسلحة المتطورة، قررت أن أتعلم استعمال السلاح، لكني لم أتعلم شيئًا واكتفيت بالأماني وحدها!

قال لي أبي:-

- "اضطررنا بعد ذلك لمغادرة القاهرة، والفرار إلى الأرياف، ما كان الإنجليز ليتركونا بعد أن كشفوا هوية جدك، الذي أزهق أرواح العديد منهم.."

لكنه لم يخبرني لماذا عاد إلى القاهرة ثانية بعد أن صار شابًا، واستقر فيها وتزوج وأنجبني.. سألت أبي مرارًا في طفولتي:-

- "لماذا لا نعود إلى الأرياف؟ ونبتعد عن زحام القاهرة وضوضائها؟"

وكان يجيبني:-

- "لأننا غرباء هناك، ليس لنا أحد.. ولأن القاهرة فيها كل شيء قد نحتاجه!"

تكرر ذات السؤال، وذات الجواب أكثر من مرة، حتى كففت عنه!

في فترة الجامعة تعرفت إلى شاب من نفس الأرياف التي تحدث عنها أبي، حين حكيت لأبي نهرني، وقال لي بصرامة مفاجئة:-

- "انس أمر تلك الأرياف نهائيًا، لا شيء يربطنا بها إطلاقًا.. هل تفهم؟"

لا.. لا أفهم سر هذه الصرامة! وما الضير في أن أتعرف جذوري؟ ولماذا يعتبر أبي الأمر سيئًا إلى هذا الحد..

على كل حال مات أبي قبل أن أنهي دراستي الجامعية، وبموته انزاح العائق الذي كان يحول بيني وبين جذوري، فعدت ثانية للبحث! وتواصلت مع ذلك الشاب الريفي، الذي كشف لي الحقيقة كاملة.. تلك الحقيقة التي كان أبي منزعجًا جدًا من أن أصل إليها يومًا ما، وأراد أن يحول بيني وبينها.

الحقيقة: أن أبي كان أكبر كذاب عرفته في حياتي كلها!

نحن لسنا أصلًا من القاهرة وفررنا إلى الأرياف، بل العكس هو الصحيح، نحن من الأرياف وفررنا إلى القاهرة! عائلتنا كانت تعمل مع الإقطاعيين، خدمًا وشرطة وكتبة لبعض الباشوات، وكانت أكبر سند لهم في امتصاص دماء البسطاء، وتسخيرهم لخدمة الأسياد، كانوا سياطًا بأيدي الباشوات على ظهور البسطاء، كما كانوا أقلامًا ودفاتر لاستلاب مقدرات تلك النواحي وثرواتها..

حين حدث ما يسمى بثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م انقلبت الأمور رأسًا على عقب، وسقط (الباشا) الذي يمثل الحماية لعائلتنا، ووجدها

البسطاء فرصة للانتقام والثأر من أعوانه، فانقضوا على جدي ومزقوه، وفر أبي ومن تبقى من أسرته إلى القاهرة، بحثًا عن الأمان والحياة! لم يكن جدي مناضلًا ضد الإنجليز، بل حارسًا للإقطاع، سوطًا على الكادحين! ولم يمت دفاعًا عن الوطن، بل مات نكالًا لما أعان عليه من الظلم والسخرة! كان أبي كاذبًا حقًا..

بل.. كان مؤرخًا!!

***

(٤)

أنا لا أخاف الزيف، بل على العكس أستمرئه.

أنا أخاف الحقيقة، لأنها دائمًا موجعة، كريهة، وأحيانًا مهلكة.

الحقيقة هي الشبح الذي أخشاه وأفر منه، والزيف هو الأمان والملاذ.

***

(٥)

أعرف أن هذا الفتى يمقتني، وأعرف أنه يعتقد بأن حظه العاثر هو من أوقعه تحت يدي أنا بالذات لأشرف على رسالته.. لا بأس يا بني.. ذق من الإذلال ما ذقته أنا قبلك، إلى أن تتعلم ما تعلمته أنا وتختصر الوقت، أعتقد أنك بدأت تتعلم، لأنك زدت من جرعات التملق لي في الفترة الأخيرة، هذا ما فعلته أنا يومًا ما، لكنه –وحده– لن يجدي، فكر في وسائل أخرى مساعدة.. كالرشوة مثلًا!

طبعًا لن تكون رشوة مباشرة وصريحة، فلتكن في صورة هدايا، ودعاوى لولائم، وتوصيلات لأماكن بعيدة، وخدمات خارج نطاق العمل.. لا بأس سأقبل بكل ذلك، ليس لأنني بحاجة إلى المال، وإنما إيمانًا مني بفعالية تلك الوسائل الملتوية، إنها تختصر الكثير من الوقت والجهد، وصدقني.. بلدنا هذا هو البيئة الأنسب لتلك الوسائل الملتوية عبر التاريخ!

هو باحث عندنا بالجامعة، اسمه (محمود)، اسم ذائع الانتشار لأسباب دينية، تنطبق عليه أوصاف الفتى المثقف النهم للقراءة، ويظن أنه يعرف الكثير، كما تنطبق عليه أوصاف الفتى الحالم، الطيب لدرجة السذاجة.. اختياره للموضوع ينم عن ذلك: (المبادئ المشتركة لثورات المصريين في التاريخ القديم)، ما هذا الهراء؟!

عن أي ثورات يتحدث، نحن أكثر الشعوب حديثًا عن الثورات، لكننا في الحقيقة أقل الشعوب قيامًا بها، نحن لم نقم بثورة كاملة في تاريخنا كله، كل ما قمنا به: إما (أنصاف ثورات) باءت بالفشل، وانقلبت نتائجها على القائمين بها، وقطف ثمارها أعداؤها، وإما ثورات مزيفة ومدبرة، لخدمة فئة من الحكام المستبدين ضد آخرين مثلهم!

الشيء الوحيد الذي ينجح في بلادنا هو اغتصاب السلطة بالقوة، لأننا شعوب تحترم القوة وحدها، وينطبق علينا أكثر من غيرنا مقولة (نتنياهو): "العالم قد يتعاطف مع الضعيف بعض الوقت، لكنه يحترم القوي كل الوقت!".. وصدق وهو كذوب!

انظر إلى مقدمات أي ثورة مزعومة منذ عهد (بيبي الثاني) ووثيقة (إيبور) حتى عصرنا هذا، ثم قل لي: ما أسبابها؟ ضرائب باهظة.. طبقية متوحشة.. قمع.. إذلال.. إقطاع.. ثم أخبرني: ما الذي تغير عبر كل تلك القرون؟ هل زالت تلك الأسباب والمقدمات؟ هل حصل هذا الشعب على شيء من حقوقه؟!

طبعًا لا تستطيع أنت إجابة هذا السؤال، لأني أنا لا أستطيع أصلًا أن أطرحه، إن وجودي بالجامعة، وضمان استمراري فيها، والترقي في المناصب مرهون بتجنب هذا السؤال، وتلك الإجابة.. نحن هنا وظيفتنا أن نغربل أحداث التاريخ المزيفة أصلًا، لنختار منها وقائع معينة ونعيد تزييفها من جديد، لخدمة القابعين في قمة الهرم.

لقد شاهدت وسمعت بنفسي (هيكل) وهو يتحدث عن ذلك اليوم، حين تم استدعاؤه إلى مبني القيادة ليجد الضباط والجنود هناك يأكلون الخبز والجبن، دون أن يكون لديهم أدنى معرفة بما يحدث فوقهم، وحين صعد لأعلى التقى بـ (جمال عبد الناصر) بصحبة (علي ماهر باشا) الذي يفترض أنه من العهد البائد الذي ثاروا عليه، وحين سألهما (هيكل): "هل نسمي ما حدث انقلابًا عسكريًا؟" انزعج (عبد الناصر)، ورفض تلك التسمية خوفًا من رد فعل القوى الاستعمارية، فعاد (هيكل) يسأل: "هل نسميه ثورة؟" فانزعج (علي ماهر)، ورفض تلك التسمية أيضًا خوفًا من هروب الاستثمارات الأجنبية، وفي النهاية اتفقوا على أن يسموها (حركة)!

لكنها بعد ذلك أضحى اسمها (ثورة)، وفرض ذلك الاسم على الوجدان الجمعي الشعبي.. قس على ذلك جميع أحداث التاريخ التي حصلنا عليها من وثائق غير يقينية المحتوى ولا الزمن..

إن الحديث عن الثورات في بلد كبلدنا في حد ذاته يعد تزييفًا، فنحن نطلق اسم (الثورة) على أي شيء وكل شيء، وهكذا صار عندنا عشرات الثورات: ثورة بيضاء، وثورة خضراء، وثورة إدارية، وثورة تصحيح .... إلى آخر هذا الهراء، وفي الواقع لم يتغير شيء!

ما زالت الطبقية المتوحشة تهيمن على مجتمعنا، وما زال الإقطاع موجودًا وإن انمحى اسمه، وما زال الفقير يئن، والغني يرتع، والمناصب والنفوذ يورثان، والفساد يسري بكافة قواعد البلاد، وكذلك البيروقراطية، وما زال تزييف الوعي، وتأميم العقل ساريًا.

لو أنك حقًا يا بني تريد إعداد رسالة حقيقية عن الثورات في أي عهد من تاريخ مصر، فليكن مدار بحثك عن إجابة السؤال: لماذا لم تقم ثورات حقيقية بمصر؟

هكذا تكون صادقًا مع نفسك، ومع الآخرين، لكن المشكلة أنك ستخسر كل شيء، وسيتم تشويهك قبل إسقاطك وإقصائك.. إن كنت تريد أن تكتب في هذا العبث، وتشترك في مسلسل التزييف، فليكن، ولكن إياك أن تصدق ذلك الوهم، وإياك أن تؤمن بأنه حق وحقيقة، وإلا تحولت إلى مهرج يرقص على المسرح، وفي الشارع، وفي البيت، وفي كل مكان كي يمتع الآخرين!

- "هل لديك أي ملاحظات يا دكتور؟"

كذا يسألني دائمًا.. بالطبع لديّ ملاحظات، واعتراضات، وانتقادات، لا بد أن يكون الأمر كذلك، هل تظن أنك ستفلت يومًا من ذلك، لكنك لن تعرف ملاحظاتي الحقيقية، تلك أحتفظ بها لنفسي، سأدلي بملاحظات مزيفة، كذلك التاريخ الذي تكتب عنه، وسأعقد لك الأمر، وأستمر في إذلالك، إلى أن تفهم -كما فهمت أنا- حقائق الأمور، وتؤمن بأن الزيف والوسائل الملتوية هما كل شيء في حياتنا!

***

(٦)

عام ١٨٩٨م ألف كاتب أمريكي مغمور اسمه (مورغان روبرتسن) رواية بعنوان (العبث) أو (حطام التيتان)، تدور الرواية حول سفينة عملاقة اسمها (تيتان) تبحر في رحلة عبر الأطلسي، وعلى متنها أكثر من ألف راكب، فتصطدم في رحلتها بجبل جليدي، فتغرق بمعظم من عليها.

بعد ١٤ عامًا من صدور الرواية تم بناء سفينة عملاقة، سميت بـ (تيتانيك)، لتقوم برحلتها الأولى عبر الأطلسي، وعلى متنها أكثر من ألف راكب، ويقال -وإن كنت أشك في هذا بشدة- إنها اصطدمت بجبل جليدي أثناء رحلتها، فتغرق بمعظم من عليها!!

إن صح هذا الأمر كما روّجت له السينما: هل هي مصادفة؟ أم أن (روبرتسن) كان لديه القدرة على التنبؤ بأحداث مستقبلية؟

بعيدًا عن شكوكي حول غرق (تيتانيك): أعرف أن هناك أشخاصًا بالفعل لديهم هذه القدرة، وليس لذلك أي تفسير علمي، كما أن هناك محتالين يدعون هذه القدرة، ويتحدثون عن أشياء عامة تقع منها بعض الأشياء بالفعل.

عن نفسي لا أعرف إن كنت أملك هذه القدرة أم لا.. لكني أتوقع أشياء قبل حدوثها، وتقع بالفعل كما توقعت، أخي (هشام) الذي طلب مني أن أعلمه قيادة السيارة، واعتذرت، وقلت له:-

- "دعك من أمر القيادة هذا.. لا أحب أن أكون سببًا لتعرضك لحادثة تتهشم فيها جمجمتك لأنك غلبك النوم أثناء القيادة، أو كنت شاردًا فلم تنتبه لشاحنة قادمة من الاتجاه المقابل!"

قال شهود العيان إن سيارة (هشام) انحرفت فجأة عن مسارها، دون سبب واضح، لتنطلق في الجانب الأيسر من الطريق، وكانت مندفعة بسرعة لا تسمح بالتوقف، أو بتعديل المسار قبل الارتطام بتلك الشاحنة القادمة بالاتجاه المقابل!

بررت الشرطة الأمر بأن الفقيد غلبه النوم أثناء القيادة، فلم ينتبه لمسار سيارته، لم يكن في دمائه أي أثر لمخدر من أي نوع، (هشام) ليس من هذا النوع، لكن سبب الوفاة المباشر كان معلومًا: إصابة حادة بالمخ، بعد تهشم الجمجمة!

(هشام) لم يكن مجرد أخي الأصغر، كان صديقي الوحيد في الحياة، لم تكن أمنية مني أن أفقده، ثم أفقد أمي بعده بزمن يسير..

لعلها صدفة.. أو نبوءة! لكني أعرف أني تنبأت بأشياء عديدة بعدها، ووقعت كما تنبأت! لست ساحرًا، ولا دجالاً مشعوذًا، ولست أنوي أن أتكسب بهذه الموهبة، بل إني لن أفكر حتى في الكشف عنها للآخرين، لكني أحيانًا أنزعج من ذلك، خاصة أني أتوقع الأسوأ دائمًا.. وهناك أشياء من الأفضل لنا أن نجهلها..

عندما رأيت ذاك الطالب الذي يسمى (عمر) عرفت أنه سيسقط في دوامة الحياة، سينهار انهيارًا ذريعًا ويفقد كل شيء، سواء بيدي أم بيد أحد سواي! لكن هذا لا يدعوني للتعاطف معه! لأنه في الغالب سيودي بنفسه قبل أن يفعل الآخرون! هذه الحماسة التي تلمؤه، هذه المشاعر النقية التي يهبها لمن حوله، هذا الحلم الذي يحمله وينميه داخل وجدانه، إنه مثالي، وينظر إلى الحياة نظرة مثالية، وهذا سيكون وبالًا عليه، إنه يحمل أدوات قتله دون أن يدري.

لكن ما الذي يعنيني أنا منه؟ ليسقط، أو ليصعد.. لا فرق بالنسبة لي! لقد صعدت بمفردي، وأثناء صعودي كنت على مشارف السقوط مرات عديدة، ولم ينقذني أحد سواي!

***

(٧)

أعرف بيقين أن التاريخ كله مكذوب، ومع ذلك فإنه مليء بالعبر والدروس، وإن كان البشر لا يتعلمون شيئًا منها، فكلما تقدم الزمان ازداد البشر وحشية وهمجية، بدليل أن القرن العشرين هو أسوأ قرون

البشرية، رغم هذا التقدم العلمي غير المسبوق، فقد شهد في الوقت ذاته حربين عالميتين سحقتا ملايين البشر، واعتداء بالقنابل الذرية، وإبادة شاملة لأعراق وأجناس متعددة، فضلًا عن الاستعمار بكل أشكاله وأسمائه، ومساوئه! والقرن الحادي والعشرين يبدو واعدًا بالمزيد من الوحشية والدمار، فهم لا يتعلمون من التاريخ سوى تغيير وسائل الإيذاء، وتعديل خطط الشر!

لكن الغاية تبرر الوسيلة حقًا، في هذا الزمان لا مكان للأخيار، ولا مكان لأصحاب المبادئ، ولا مكان للأذكياء ما لم يكونوا أفاقين ومحتالين!

استوعبت تلك الدروس متأخرًا بعض الشيء، بعد أن أهدرت سنوات طويلة في السعي نحو الماجستير وإذلال المشرف ولوائح الجامعات، وسنوات أخرى في السعي نحو الدكتوراه، أيضًا مع إذلال المشرف، ولوائح الجامعات.. لكن لم أحصل على شيء إلا بالرشوة والاحتيال والانتحال، تعلمت الدرس متأخرًا بعض الشيء، لكن عزائي أني وصلت إلى ما أريد!

ذاك الفتى يظن أنه ذكي، وأن ذكاءه وحده يمكن أن يوصله إلى شيء، لعله كان يعتبرني رمزًا أو مثلًا أعلى، ربما أرضى هذا غروري بعض الوقت لكني سريع السأم.. كان اسمه (عمر)، وكان المشهد مألوفًا لطلاب الصف، أنا أحاضر عن التاريخ، وذلك الطالب النابغ يناقش ويحلل ما أقول!

الحق أنه أضفى على محاضراتي نوعًا من البهجة والمتعة التي كانت تنقصهما، والذين كانوا يتغيبون عنها باتوا يحضرونها من أجل الاستمتاع بمناقشاتنا معًا.. كان هو نفسه مستمتعًا بدور الطالب النابه، ويظن أنه أصبح صديقي لأني أسمح له بمناقشتي، لكني كنت أتظاهر بالاستمتاع لا أكثر، كان بالنسبة لي مجرد وسيلة تسلية، لكسر روتين العمل، لكني سرعان ما سئمته، وسئمت مناقشاته، والأهم أني ضقت باعتقاده أنه أصبح مقربًا لي، وأني معجب بنبوغه.. بينما أنا في الحقيقة أبغض النابغين، وأحب الأفاقين!

لم يكن لتلك المناقشات أثر كبير عليّ، شعرت بالتسرية بعض الوقت، والضيق أكثر الوقت، وأخفيت ضيقي، لكنها كانت ذات أثر بالغ عليه هو، لقد أحب مادتي، وتفوق فيها حقًا، وأقبل على دراسة التاريخ بنهم، وكان يناقشني في أحداث خارج المنهج المقرر، وأكب على مؤلفاتي، وأعتقد أنه استفاد أيضًا الحصول على موقع (النجم) بين الطلاب، وأضحى له معجبون ومعجبات من طلاب الصف، يتعاملون معه كما لو كان حامل شعلة التاريخ من بعدي، المدهش أنه جاء في أحد الأيام يستشيرني في الموضوع المناسب لرسالة الماجستير، وهو لم يزل يدرس في الليسانس!!

حتى كان ذلك اليوم حين أتى إلى مكتبي ذات صباح ليناقشني في مسألة ما، وبصحبته تلك الجميلة.. من الوهلة الأولى عرفت أنها ليست مجرد زميلته، بل حبيبته، اسمها (سارة)، تنبهت بغتة إلى أني أمضيت

شبابي وأوشكت على استنفاذ كهولتي ولم يكن في حياتي أبدًا أية (سارة)!

إنها جميلة جدًا، بل فاتنة، لعلها أجمل فتاة رأيتها في حياتي، دون مبالغة، لا.. لم أنجذب إليها، فقد شخت عن ذلك، لكني شعرت بالمأساة، هذا الفتى لو درس التاريخ مثلي، ودرس أساطير القدماء في جميع الشعوب، لأدرك القاعدة المطلقة: الحسناوات أقل وفاءً من الأخريات! الحسناوات مصدر الشرور، وسبب النكبات!

لا توجد حسناء في التاريخ لم يرتبط اسمها بنكبة، أو مأساة.. حتى لو كان التاريخ كله مكذوبًا كما أعتقد، فالذين اختلقوا تلك الأكاذيب استمدوها حتمًا من تجارب وشواهد واقعية.

لو كان الأمر يقبل المراهنة لراهنت بكل ثقة على أنها ستتخلى عنه، تحت أي ظرف، ولأي سبب.. ستقتله حتمًا، ولو كان ذكيًا بما يكفي لبدأ هو بالفرار، وتخلى عنها.. ولن يقتلها بذلك، لأنها ستجد آخر بديلًا عنه بكل سهولة.

كل هذا لا يعنيني.. ما يعنيني أن الفتى حصل على تلك الجميلة من خلالي أنا، لقد أصبح نجمًا وسط طلاب صفه، بفضلي أنا، حتمًا هناك معجبات أخريات، لكنه اختار أجملهن، اختار تلك التي ستقتله!

حسنٌ.. هو يستحق ذلك..

ويستحق أيضًا أن يرسب في مادتي، لقد اكتفيت منه، ولم يعد مسليًا بالنسبة لي، ستكون صدمة له وللجميع، لكن لا بأس، الحياة ليست

سوى صدمات، عليه أن يعتاد هذا، وأعتقد أن صدمتي له لن تكون أقسى من صدمته فيها هي حين تتخلى عنه!

لست أعلم الغيب، لكني أجيد التوقع لما هو آت.. وبارع في المراهنة! ستكون قسوة مني.. لكن لا بأس! سيكون درسًا للآخرين ألا يعترضوا أو يناقشوا أي طرح أقدمه، وألا يعتقد أحدهم أنه من الممكن أن يكون لي صديقًا.

والأهم: أن يعرف الجميع أني لست وسيلة للحصول على الفاتنات!

***

الفصل الثالث

- سُقُــــوط -

على لســان (مُــنَــى)

(١)

لماذا يقتلني؟ ماذا فعلت له؟!

إنه بالكاد يعرفني، نعمل معًا لكننا لا نلتقي إلا نادرًا، أنا في قسم ملابس السيدات والأطفال، وهو هناك في قسم ملابس الرجال، ليس بيننا أي كلام من أي نوع أكثر من التحية.. بل إنني حتى عرفت اسمه صدفة، وكنت أنساه في بعض الأحيان، ولم أكن أتصور أنه يعرف اسمي!

لكنه ليس أول من يفكر في قتلي، أمي طوال الوقت تهددني بالقتل، وإن كانت ليست جادة في ذلك، لكن زوج أمي كان جادًا تمامًا وهو يتوعدني، ابنه (رجب) توعدني بالقتل، (هاني) جارنا توعدني بالقتل.!

كلهم –باستثناء (منصور)– أرادوا إما قتلي، وإما سقوطي في براثنهم، لكني لم أسقط، ولن أسقط..

***

(٢)

قال لي (منصور) في لحظة صفاء:–

– "فاتنة أنتِ يا (منى) مثل (سميراميس)!"

قلت في تساؤل:–

– "(سميراميس)؟!"

أوضح قائلًا:–

- "(سميراميس).. ملكة آشورية قديمة، كانت مشهورة بجمالها الأخاذ، وشخصيتها القوية، لدرجة أنهم حكوا عنه الأساطير.."

كان كلامه ذا مذاق حلو على قلبي، طالبته أن يحكي لي قصتها..

قال:-

- "يحكون أنه ذات يوم في قديم الزمان نزلت سيول عارمة صبت بنهر الفرات، ففاض النهر، وتدفقت مياهه، وخرجت منه سمكتان تحملان بيضة كبيرة طافية نحو الشاطئ، وإذا بحمامة بيضاء كبيرة تهبط من السماء وتحتضن البيضة بعيدًا عن مجرى النهر.

رقدت الحمامة على البيضة حتى فقست، ومن داخل البيضة خرجت طفلة رائعة الجمال، التف حولها أسراب الحمام ترف بأجنحتها عليها بأجنحتها لتحميها من حر النهار وبرد الليل، ثم بدأت الحمائم تبحث عن غذاء للطفلة، فاهتدت إلى مكان يضع فيه الرعاة ما يصنعون من جبن وحليب، فتأخذ الحمائم منها بمقدار ما تحمل مناقيرها، لتقدمه للطفلة التي عاشت مع حمائمها سعيدة لا تعرف أبدًا طعم الشقاء.

بعد سنوات تنبه الرعاة إلى ما تفعله الحمائم، فتبعوها حتى وصلوا إلى الطفلة الرائعة الجمال، فأخذوها إلى خيامهم، واتفقوا على أن يبيعوها في السوق، وأطلقوا عليها اسم (سميراميس).. وهناك رآها رجل اسمه (سيما)، يعمل عند الملك، وكان عقيمًا لا ينجب، فهفا قلبه إلى (سميراميس) فاشتراها ليتبناها..

كبرت الطفلة الساحرة، وبرزت أنوثتها كأجمل ما تكون النساء، فرآها ذات يوم رجل اسمه (أونس) مستشار الملك، فصعق مذهولًا من جمالها وبراءتها، فتزوجها.

وفي يوم من الأيام كان الملك يخوض معركة ضد مملكة مجاورة، وتعقدت الأمور في المعركة، ولم يعرف كيف يتصرف، فأرسل في طلب مستشاره (أونس) ليشير عليه كيف يتصرف، لكن (أونس) لم يكن يطيق الابتعاد عن (سميراميس)، فأخذها معه إلى الملك، وهناك اجتمعوا للبحث عن حل يحقق لهم النصر في المعركة، لكنهم لم يتوصلوا إلى شيء، فإذا بـ (سميراميس) تضع لهم خطة عبقرية، استطاعوا من خلال حصار العدو وإلحاق الهزيمة به.. مما جعل الملك ينبهر بذكاء (سميراميس) بالإضافة إلى جمالها الساحر.

وبعد فترة وجد الملك نفسه غير قادر على مقاومة انجذابه لها، فطلب من (أونس) أن يتركها له، ليتزوجها، لكن (أونس) رفض ذلك، فما كان من الملك إلا أن قبض عليه وهدده باقتلاع عينيه وقتله شر قتلة، فاضطر (أونس) لترك حبيبته وزوجته، ليتزوجها الملك، لكنه لم يصمد طويلًا وأنهى حياته حزنًا وندمًا على تركها.

المهم أن (سميراميس) صارت ملكة للبلاد، وأنجبت طفلاً صار ملكًا فيما بعد، وكانت هي المسيطرة على الحكم خلال حياة زوجها، وحياة ابنها من بعده.. واستطاعت أن توسع حدود إمبراطوريتها بفضل جمالها الأخاذ، وذكائها الخارق، وسعى إليها ملوك الأرض بعد أن أصبحت

معبودة جنودها، وكل شخص يراها يكون على استعداد لدفع حياته مقابل قبلة منها!"

يا إلهي! كيف يحفظ هذه الأسماء؟

لكنه فجأة وضع يده على قلبه، وارتمى على الأرض وهو يصيح:-

- "أنا أموت يا (سميراميس).. قبليني!!"

ضحكنا كثيرًا ذلك اليوم، وأعطيته القبلة التي أرادها، ولكن على خده!

بعدها صار يناديني باسم (منى راميس).. اسم محبب له مذاق السكر على مسامعي، كنت أحب (منصور) بشدة، أعشقه بجنون، إنه مختلف عن كل شبان الحي الأوغاد، مثقف، وسيم، كلامه منمق ولذيذ! ليس فظًا مثل (رجب)، ولا سوقيًا مثل (هاني)! كان يستأجر حجرة في حينا الفقير البائس، جاء من محافظة بعيدة، ليشتغل بالصحافة، يقرأ كثيرًا ويكتب أشياء جميلة.. (منصور) هو من فتح لي آفاقًا جديدة في الحياة ما كنت لأتعرفها بدونه.

كلهم عرفوا عشقي (منصور)، وجلب هذا عليه الوبال، أمي تشاجرت معه مرارًا، وطالبته بالابتعاد عني، (رجب) اعتدى عليه بالضرب، وتوعده بما هو أكثر من الضرب لو لم يرحل عن الحي، (هاني) هو الآخر آذاه وطالبه بالرحيل، أنا من تصديت لهم، وقلت لهم: "لا.. لن يرحل"!

لعل هذا ما جعله يسميني (سميراميس)، أنا لم أخرج من بيضة، ولم ترعاني الحمائم، لكن الله وهبني جمالاً أخاذًا، لم تحظ به فتاة أخرى في هذا الحي، ولا في الأحياء المجاورة.. كان (منصور) يقسم لي أني أجمل من بنات (المهندسين) و(الزمالك)، دون أن أرتدي ثيابهم، أو أضع مساحيقهم، آخرون أقسموا لي أني أجمل من نجمات السينما، (علاء) كان يشبهني بواحدة من نجمات السينما الأجنبية!

(علاء) مهذب، ويعاملني كأخت، وهذا نادر جدًا أن أحصل على مثل هذه المعاملة من أحد، وأنا لم أكن لأسمح له بغير ذلك، أنا (سميراميس) الملكة الجميلة القوية، (إليزابيث سوان) المقاتلة التي لا تخشى القراصنة ولا وحوش البحر.

تبًا لك يا (منصور).. أنت نقطة ضعفي الوحيدة، لماذا تخليت عني؟ أنت من جعلني أومن بأني ساحرة.. قاتلة.. قاهرة.. لا أعرف الضعف، ولا الهزيمة!

لكن.. ذلك الفتى! ماذا كان اسمه؟ (عمر).. نعم (عمر)..

لماذا يقتلني؟

* * *

(٣)

قال لي العم (حامد):-

- "أبوكِ لم يكن مجرمًا.. كل ما في الأمر أنه رفض أن يكون واشيًا، فلفق له الضابط قضية، وألقى به في السجن، وهناك مات غمًا.."

تساءلتُ: وهل هذه بطولة؟! رفض أن يشي بأمثال (سلطان) الذي يتجر بالحشيش وبكل شيء سيئ، ليموت هو سجينًا موصومًا بالعار، ويدع زوجته لـ (سلطان) الوغد يذلها ويضيق عليها، ويرغمها على الزواج منه، ويطمع في ابنتها معها؟ أية بطولة في هذا؟ إنها الجريمة ذاتها!

الجريمة أن تتزوج امرأة جميلة، وتنجب فتاة جميلة، ثم لا تفعل المستحيل لحمايتهما! الجريمة أن ترفض الإيقاع بالذئاب ليوقعوا هم بامرأتك وابنتك.. لقد تخلى عنا، بل باعنا، ليس حفاظًا على مبادئه، فالوشاية بأمثال (سلطان) لا تخالف المبادئ في شيء، بل باعنا حفاظًا على كبريائه وتوقيره لنفسه، رفض أن يرى نفسه واشيًا، والنتيجة: أن أمي صارت زوجة لـ (سلطان) تاجر الحشيش، وأنا صرت مطمعًا له، ولابنه!

حسنٌ.. لقد تركت في كل منهما أثر لن يمحى، تلك الندبة في أعلى جبين (سلطان) الأب، والأخرى أسفل ذقن ابنه (رجب)، هذا عقاب بسيط لمن يفكر في الاعتداء عليّ، أو يظن أني يسهل الحصول عليّ.. هم لا يرون سوى جمالي الفتان، وجسدي المثير، أنا بالنسبة لهم امرأة خلقت ليعبثوا بجسدها ويلتهموها، وهي تئن وتتأوه من اللذة، وتطلب المزيد! إنهم حثالة! حيوانات لا تفكر إلا بأعضائها الجنسية.

حتى (منصور) تخلى عني، انشغل بقضيته، وظل يكتب ويهتف دون حرص أو حذر، حتى أخذوه إلى حيث لا يدري أحد!

تبًا لك يا (منصور)!

تقاتل في معركة أنت تعلم أكثر من غيرك أنها خاسرة!

هذه النظرات تحاصرني في كل خطوة أخطوها، كأنها سهام تنشب بجسدي، كلهم عيونهم على جسدي، لا يرون شيئًا آخر سوى ذاك! أنظر إلى أمي في تحسر، كانت جميلة في الزمان الذي مضى، أضاع جمالها الإذلال، المصيبة أنها تريدني أن أكون مثلها، وتطالبني بالاستسلام لأحد هؤلاء الذئاب، انظري إلى المرآة يا أمي، ثم انظري إلى صورك القديمة، وأخبريني كيف صرت إلى تلك الهيئة؟ وهل هذا ما تريدينه لي؟

في هذا الحي الوضيع كل شيء فاسد مدنس، الهواء مدنس، المياه مدنسة، الأخلاق والطبائع مدنسة.. صبية في سن الزهور يتعاطون المخدرات ويتجرون فيها لحساب الكبار، ويتلفظون بأشنع الكلمات، رجال أنهكهم التعاطي وعزلهم عن واقع لا يعلمون عنه شيئًا، نساء يبذلن كل شيء من أجل المتعة الرخيصة، والحصول على رضا الأوغاد.. الفقر حولهم إلى حيوانات! يفرون من العوز والاحتياج إلى السُّكْر والهذيان! حيوانات في كل مكان، وعلى كل صنف!

لن أكون هكذا أبدًا، ولن أستمر ها هنا للأبد، سأبحث عن فرصتي للخروج من هذا القاع، والانطلاق إلى أعالي القمم.. أنا أيضًا عندي كبرياء يفوق كبرياء أبي، ولن أكون مثل أمي، لن أسلم نفسي لذئب دنيء، من حثالة المجتمع، بل سأبحث عن الحياة التي أستحقها!

كما أني لن أوقف حياتي للبكاء على أطلال.. لقد ذهب (منصور) للأبد، رحل في طريق هو اختاره بنفسه، وكان يعلم جيدًا مخاطره، رحل وتركني خلفه أتمزق هلعًا ووجعًا، لم يبالِ بي كما كان يبالي بقضيته ومعركته الخاسرة.. ربما سيعود يومًا خائر القوى، محطم الأحلام والضلوع، وربما لن يعود على الإطلاق، في كل الأحوال لن أنتظره، ولن أضيع حياتي أسفًا عليه رغم عشقي إياه!

سيكون هناك آخر ينقذني، وسيكون مثقفًا مثل (منصور)، لكن ليس متهورًا مثله، سيكون ثريًا من علية القوم، سيكون أنيقًا مهذبًا، ينتشلني من هذا القاع الوضيع، ويأخذني إلى عالم آخر.. عالم يرقى على كل تلك القمامة التي تحدق بي.

سيأخذني إلى عالم آخر، وحياة أخرى، لأكون ملكة متوجة مثل (سميراميس)، وأعيش بين الطبقة التي أستحق الحياة فيها، وأملك المقومات التي تؤهلني لها!

***

(٤)

هذا الطبيب يسحرني! يبهرني!

شكله.. سمته.. حديثه.. نظراته.. كل ما فيه يسحرني! هذا هو الموعود.. فيه كل المواصفات التي أنشدها..

هل قلت في المواصفات: أنه يرتدي نظارة؟ أو أنه أشيب الفودين؟

لا أعرف إن كنت أستطيع الحصول عليه أم لا؟ لكني أعرف يقينًا أنه يستحق المحاولة!

***

(٥)

قال لي العم (حامد) وهو يطوي ذراعه:-

- "هل تصدقين أن والد (سلطان) هذا كان شاعرًا؟"

والد (سلطان) زوج أمي الحيوان، شاعر؟ مستحيل!

أخذ العم (حامد) يدعك موضع الإبرة، ثم بسط كُمه من جديد، قال وهو يلملم بقايا الحقنة:-

- "نعم كان شاعرًا لامعًا، هذا الحي كان يكتظ بالأدباء، وكان لهم صالون شهري يقام في منزل الأستاذ (مدبولي)، الذي أصبح (غرزة) اليوم، يجتمع فيها الحشاشون.. كنت أحضر هذه الصالونات بنفسي وأنا في مقتبل شبابي، وكان الأدباء يأتونه من الأحياء البعيدة، سمعت فيه أجمل القصائد، والقصص، والمقالات.. كانت أيامًا جميلة!"

ختم بتنهيدة تحسر، واستطرد:-

- "كان الاحترام والذوق هما عنوان الحياة في حينا هذا، وفي غيره من الأحياء، لم يكن هناك مخدرات، أسوأ ما كان يفعله المراهقون في ذاك الزمان: تدخين السجائر في الخفاء، وكان عقوبتها مغلظة جدًا حين تكتشف!"

شيء لا يصدق.. لولا أني أحترمك يا عم (حامد) وأعتبرك أبًا لي، لصارحتك بأنك كاذب في وجهك مباشرة، دون مواربة!

– "أعرف أن هذا صعب التصديق، لكني كنت هناك يا ابنتي.. في ذلك الزمان السعيد، وشاهدت كل شيء جميل، كما شاهدت التحول الفظيع يحدث تدريجيًا، قبل أن يتسارع في الانهيار! "

قطع السعال حديثه، استرح يا عم (حامد) اترك الحديث الآن.. لكنه مصمم على المواصلة..

– "أعتقد أن البداية كانت مع النكبة، بل كانت قبل ذلك بسنوات، لكن النكبة فتحت القمقم، وأخرجت العفريت مرة واحدة، كل شيء كان ينهار ويتحلل، حتى الأخلاق والتقاليد، انتشرت الإباحية والمخدرات بشكل مريب وفظيع، ثم حدث ما يسمونه بالانفتاح، فازداد الأمر سوءًا، ازداد الفقراء فقرًا، واستطاع جماعة من بينهم بفضل الاحتكار والتهريب أن يقفزوا إلى طبقة الأغنياء، مع الوقت تراكمت الأعباء، الأشياء التي كنا نعتبرها كماليات صارت لا غنى عنها، أصبح رب البيت يستدين لشراء تليفزيون أو مروحة، انهار القطاع العام، الأجور أصبحت لا تسمن ولا تغني من جوع، ومع ذلك استشرى فيه الفساد، فر أكثر الناس إلى القطاع الخاص الذي كان يترنح من الفساد هو الآخر.."

عاد إلى السعال من جديد، هذه المرة طال السعال، أشفقت عليه، لا داعي للحديث يا عم (حامد) الآن، استرح كي تأخذ الحقنة مفعولها، لكنه لسبب ما كان يصر على الحديث..

- "كل هذا مقصود.. بفعل فاعل، لقد نهبوا حقوق الفقراء ومقدراتهم، وأرادوا تعميتهم عنها، وتغييبهم عن إدراك الواقع الظالم، في ذات الوقت كان الفقراء يشعرون بالقهر والحرمان، ويرغبون في التخلص من هذا الشعور، إنهم يبحثون عن النجاة.. عن الفرار من الواقع المقبض!"

يكفي هذا يا عم (حامد) لقد فهمت ما تريد قوله، يبدو أن مفعول الحقنة أطلق لسانك بما تخفيه في أعماق قلبك، أنت سياسي أيها العجوز!

- "إنهم يسرقون اللذة الزائفة في جرعات المخدر، ولحظات الجنس، ليفروا بعيدًا.. بعيدًا عن الفقر، هناك في الأحياء الغنية يفعلون المثل، ولكن لقتل الفراغ، والتخلص من السأم، الجميع يفرون هنا وهناك، لكن هنا يفرون من الواقع نفسه.."

عاد إلى السعال.. يا إلهي سينفجر صدرك أيها العجوز، كف عن الكلام، وغب في النوم، ودعني أعد لك شيئًا تأكله عندما تفيق!

أنا أحب عم (حامد) جدًا، هو الوحيد الذي أحبه من بين جميع أهل هذا الحي البغيض الذي أقطنه، أعتبره بديلاً لأبي الذي تركنا ورحل، وترك لي اليُتم والانكسار! أنا لم أشاهد عالم الأغنياء الذي يتكلم عنه العم (حامد)، لكني أعرف أنه لن يكون أسوأ من عالمنا!

عم (حامد) يتحدث مثل (منصور) فارسي الذي رحل.. لكنه لا يجيد نظم الكلمات مثله، (منصور) له طريقة مميزة في الحديث، كان يتحدث مثل أبطال الأساطير الذين كان يحكي لي عنهم.

– "القضية في الأساس قضية هوية، علينا أولًا أن نمتلك الهوية، ثم نستميت في التمسك بها والدفاع عنها، من نحن؟ نحن فرسان نناضل من أجل الحرية، علينا أولًا أن نؤمن بذلك، ثم أن نستمسك بهذه الهوية مهما شوهونا وعاقبونا!"

تبًا لك يا (منصور)! من علمك هذا الكلام؟!

– "قد يظن البعض أننا أضعف منهم، وهذا خطأ.. إننا نمتلك سلاحًا يجعلنا أقوى منهم، إنه الرفض.. فقط كل ما علينا في هذه المرحلة أن نرفض، ونتمسك بالرفض ونستميت عليه.. رفض هذا الواقع المدنس، ويومًا ما سنكون أقوى منهم، وسننتصر عليهم، الهزيمة ستحدث فقط إذا استطاعوا إرغامنا على التخلي عن هذا الرفض، وقبول الأمر الواقع!"

تبًا لك يا (منصور)!

تبًا لك!

– "(منى راميس) أنا أدعوكِ للغداء معي غدًا لتزيني مائدتي التي ستكون زاخرة بألوان الطعام، لكن تنقصها البهجة بدونك"

– "هههههه.. قلت لك كف عن التحدث بطريقة الروايات هذه، حتى أستطيع أن أجاريك!"

– "جاريني فقط بقبول دعوتي.."

– "سأقبلها إذا تحدثت مثلنا.."

– "حسن.. ما رأيك أن نتناول الغداء معًا يا سيدتي الجميلة"

– "ما زلت تتحدث بنفس الطريقة!"

- "أووف.. ما رأيك في تناول وجبة غداء سويًا.. غدًا"
- "مممم.. سأفكر"
- "يا للخديعة!"
- "عدت لتلك الطريقة ثانية!"
- "قولي: نعم، ولن أتحدث مطلقًا"
- "بل تكلم.. أنا أحب حديثك"
- "اقبلي دعوتي!"
- "موافقة.. لكن لنجعلها عشاء لا غداء، حتى أنهي عملي وأفرغ لك"
- "اتفقنا"

وضاع العشاء يا (منصور)، بل ضاع كل شيء.. وبقيت الدعوة معلقة كآمالي في عودتك، قبل أن تتبخر بمرور الأيام! ولم يبق لي منك سوى جرح غائر لن يندمل، وذكريات حارقة!

لقد تخليت عني مثل أبي، كلاكما لعبتما دور البطولة على حسابي، وتركتماني فريسة لتلك الذئاب.. اللعنة عليكما!

اللعنة عليك أنت وأبي يا (منصور)!

***

(٦)

(سلطان) استطاع أن يستحوذ على أمي، ويستنزف جمالها وشبابها، وابنه (رجب) يريد فعل نفس الشيء معي، أما (هاني) فهو مجرد فأر جبان، يظهر فقط في غياب (رجب)، ويختفي إذا حضر.. هذه الأيام

(هاني) يخنقني أكثر، النذل يهددني بالقتل إن فكرت في الارتباط بغيره، تمامًا مثلما سبق وأن فعلها (رجب)، أفكر في إخبار (رجب) عنه، لعل أحدهما يقتل الآخر، وأستريح من كليهما!

- "لا.. إياكِ أن تفعلي"

- "لماذا يا (منصور)؟"

- "لأكثر من سبب: أولًا: هذه طريقة الجبناء، والضعفاء، وأنتِ لست جبانة ولا ضعيفة.. أنت الملكة (منى راميس).

ثانيًا: التجاؤك إلى (رجب) سيعتبره تفويضًا له لأن يكون مسئولًا عنك، وهذا التفويض سيمنحه أحقية الهيمنة على حياتك!"

- "لا أفهم ما تقول، لكن لا يهم، سيكون أحدهما قتيلًا، والآخر سجينًا أو مشنوقًا، ماذا يضيرني؟"

- "أنت شريرة يا مليكتي!"

ليتني كنت كذلك يا (منصور)، كنت تأقلمت مع الواقع المدنس الذي نشأت فيه، وكنت تخليت عن شرفي وعن شخصيتي، لكني صمدت، وقاومت، وما زلت صامدة أقاوم، وكنت على وشك أن أضعف لولا ظهورك أنت في حياتي.

أنا مدينة لك يا (منصور) بأن منحتني القوة والاعتزاز بالنفس، هذا هو الشيء الذي أحدث فارقًا كبيرًا في حياتي!

- "هل تعلمين يا مليكتي.. أنا أشفق على (رجب) و(هاني) والآخرين!"

- "تشفق على هؤلاء الأوغاد؟"

- "نعم.. إنهم أوغاد لكنهم ضعفاء جدًا، ضعفاء فوق ما تتخيلين.. ضعفاء لشهواتهم، ولنزواتهم، لكن الجهل هو الذي جعلهم كذلك، إنهم عبيد غرائزهم الأساسية"

- "تقصد حيوانات"

- "لعلهم كذلك فعلًا.. لكنهم في الأصل بشر.. من المسئول عن تحولهم إلى حيوانات؟! إنه هذا الواقع المدنس التي تم فرضه علينا"

مثالي أنت يا (منصور).. تتعامل مع الأوغاد باعتبارهم ضحايا، أنا لا أوافقك في هذا، ربما لأنك لم تختبر حياتي، ولم تر السعار الذي رأيته في عيونهم، ولم تضطر للفرار بعض الوقت، والحذر كل الوقت، لم تجرب أن تنام وعيناك مفتوحتان، لأنك تتوقع هجمة من صياد في أية لحظة.. هؤلاء ليسوا ضحايا، بل أوغادًا، وحصلوا على الواقع الذي يلائمهم.

لكنه أشار بسبابته محذرًا:-

- "هذه نظرة عنصرية أتمنى أن تتخلي عنها، (رجب) أو (هاني)، أو أي شخص مثلهم، هم في الحقيقة منا، ضحايا مثلنا، يحتاجون إلى إنقاذ لا عقاب، عليكِ أن تؤمني بذلك وإلا فأنتِ في طريقك لاعتناق عقيدة (هتلر)"

(هتلر)!! تبًا لهذا!

- "نعم (هتلر)، لقد كان ينظر إلى الواقع من منطلق: (نحن) و(هم)، نحن النبلاء الأنقياء، وهم الأوغاد الأشرار حلفاء اليهود، وصرّح بهذه الفكرة في معظم خطاباته وفي كتاب كفاحه، وحين أمسك بالسلطة كان عليه أن يغير واقع هؤلاء التعساء، لكنه بدلًا من ذلك بدأ ينظر إلى المخالفين له منهم باعتبارهم حفنة من (الفوضويين) الذين لا يقبلون بالنظام والانضباط، ويضايقهم القانون والاستقرار، أو من السُّذج فارغي العقول، الذين يسهل خداعهم من قبل الأعداء، واستغلالهم ضد أوطانهم، لإحداث الفوضى والخراب، ومع الوقت بدأ يؤمن بأن هؤلاء البسطاء هم (العدو الأكبر) لأنفسهم، فأصبحت قضيته حمايتهم من أنفسهم، وهذا بالطبع لن يحدث بالرفق، لأن الرفق سيشجعهم على التمادي في سعيهم للفوضى والخراب، وكيف انتهى هذا كله؟ بالهزيمة والتقسيم والخراب، وكيف أصبحت ألمانيا الآن بعد أن تخلصت من نظرية (هتلر) ومنهجيته؟ واحدة من الدول الصناعية الكبرى، ومن أكثر دول العالم تطورًا، بما يعني أن نظرية (هتلر) قادت السفينة إلى القاع"

آه يا (منصور)! أنت لا تدري كم أحبك! ولا تدري كم من الأحلام بنيتها لحياتنا ومستقبلنا معًا، لكنك في النهاية تخليت عني، واخترت نهايتك ونهاية حبنا، أنت فعلت بي ما لم يفعله جميع الذئاب الذين سعوا لسقوطي، خذلتني، وخذلت كل أحلامي معك!

تبًا لك يا (منصور)!

أنا الضحية هنا لا أنت، ولا هم! أنا الضحية..

فلماذا يريد ذاك الفتى المخبول أن يقتلني؟!

***

(٧)

عندما كنا معًا يا (منصور) لم أكن أخاف شيئًا سوى أن أفقدك!

وقد فقدتك..

الآن لم أعد أخشى شيئًا سوى السقوط!

***

الفصل الرابع

- اعتراف -

على لسان (ياسر)

(١)

الحاجب ينادي اسمي بحماسة.. بنشوة.. بظفر.. بتشفٍّ..

(ياسر محمد السيد عبد الرحيم)! إنه حتى لا يكتفي باسمي واسم أبي، يصر على الاستمرار حتى الاسم الرابع، ما الذي يملؤه بكل هذه الحماسة والنشوة والتشفي تجاهي، وهو لا يعرفني من الأساس؟

أعتقد أن الأمر يمنحه متعة كبرى بذاته، ربما لو حكم القاضي ببراءة أي متهم هنا سيشعره بالحنق لأنه لن يجد المتعة التي يجدها في حال الإدانة، وأظن أيضًا أن المتعة والنشوة يصلان إلى ذروتهما إذا كان الحكم بالإعدام، أو المؤبد، وتقل تدريجيًا كلما نقصت العقوبة، ترى إلى أي درجة سيستمتع بعقوبتي؟!

لا أعرف حتى الآن كم ستكون عقوبتي، فقط أعرف أن العقوبة مؤكدة، ولا أمل على الإطلاق في البراءة!

الحاجب ينادي اسمي بحماسة.. بنشوة.. بظفر.. بتشفٍّ..

لقد حان الدور عليّ، إنها القضية الحادية عشرة في الترتيب، مؤكد أنه ثمة قضايا أخرى تالية، لقد تم تأجيل النطق بالحكم في خمس قضايا، بينما صدر الحكم الباتّ في خمس قضايا أُخرى، الكفتان متساويتان، مما جعلني أجد صعوبة في تخمين ما سيحدث لي، تأجيل أم نطق بالحكم، وذلك المحامي البدين الوغد –الذي يفترض أنه يدافع عني– أخبرني أنها (ربما) تكون جلسة النطق بالحكم..

- "لا تقلق.. لقد أقنعت المحكمة أن وجودك بالمكان كان خطأ، وعملت أيضًا على تحويل مسار القضية من الاتجار إلى التعاطي، تأكد أن الحكم سيكون مخففًا!"

تبًا لك! يتحدث كما لو كان إنجازًا، لكنني في جميع الأحوال سأسجن، هل من أمل لي في أن يقتصر الأمر على غرامة فقط؟

- "عقوبة الاتجار قد تصل إلى المؤبد والإعدام، احمد ربك على أنك ستنجو من هذا! التعاطي أمره أهون بكثير.."

لكني سأحبس في كل الأحوال!

ما زال المحامي الوغد يحاول طمأنتي:-

- "الحكم لن يزيد على عامين على الأكثر، وقد مضى عليك أكثر من نصفها في الحبس الاحتياطي، يعني لن يستغرق الأمر سوى بضعة أشهر وتغادر!"

هل يفترض أن يطمئنني هذا؟ أنا أريد أن أخرج الآن.. لا أحتمل المزيد من السجن، الآن أيها الوغد، لقد حصلت على مبلغ ضخم مقابل إخراجي من هنا!

- "لا يمكن أن يحدث هذا! لقد كانت المضبوطات عبارة عن (كوكايين)، أتدري ما معنى هذا؟ كما أنهم قبضوا عليك في مكان مخصص لتعاطي هذه الأشياء، لو كان الأمر اقتصر على (استروكس) أو (ترامادول) لكان أهون!"

لماذا تتحدث معي بهذه الصرامة أيها الوغد؟ أنا من أدفع لك الأموال لا أنت، أنت أجير عندي أنا، ليس العكس!

الحاجب ينادي اسمي بحماسة.. بنشوة.. بظفر.. بتشفٍّ..

أطالع وجوه الحاضرين، لا أعرف أحدًا منهم سوى هذا المحامي الوغد البدين، لا أصدقاء، ولا أحد من أسرتي على الإطلاق!

لا أحد ينظر إليّ محاولًا إظهار التفاؤل ليهون عليّ الأمر، كان لي صديق اسمه (عاطف) يزورني في محبسي، ولم يستنكف صداقتي، ولم يستخز منها، على الرغم من أني واثق من أن بعض رعاع الحي قد عيروه بصداقتي، وأثق كذلك أن أسرته نهته عن الاتصال بي، فما ظنك وقد صرت متهمًا بالاتجار في المخدرات، ويرى ذلك المحامي البدين الوغد أنه فعل إنجازًا بتحويلها إلى مجرد التعاطي! لكن (عاطف) كف عن زيارتي منذ فترة، ولا أعلم عنه شيئًا الآن..

أين أبي؟ وأين أمي؟ وأين إخوتي؟ لا أحد منهم هنا!

لا أصدقاء يتمسكون بصداقتي، وحتى أسرتي تخلت عني، بل أدانتني قبل أن تفعل المحكمة ذاتها، وأصدروا حكمهم عليّ قبل أن تفعل المحكمة، ماذا كان حكمهم؟ التبرؤ مني بدون أدنى شك! وهذا يعني أني مطالب بالبحث عن مأوى بعيدًا عنهم بعد أن أغادر الحبس، لكن متى سأغادر الحبس؟

ما فهمته من ذلك المحامي البدين الوغد أن الحكم في قضايا التعاطي يقتصر على الحبس سنة واحدة، مع غرامة تتراوح ما بين ألف

جنيـه واحـد، وثلاثـة آلاف جنيـه، لكـن فـي حـالتي أنـا يتوقـع مـضاعفة الحكم إلـى عـامين لأن المـواد المخـدرة التـي يفتـرض أنـهم ضـبطوها فـي نفس المكان الذي كنت به شديدة الخطورة! أنا حبيس منذ أكثر من عـام علـى ذمـة القضية، جلسة وراء جلسة وراء جلسة، حتـى هذه الجلسة لا يجزم ذلك المحامي البدين الوغد بأنها ستكون الأخيرة!

أمقت هـذا المحـامي الوغـد، بقامتـه القصيرة البدينـة، ووجهـه المنـتفخ الملـيء بـالبثور، وطريقـة كلامـه وهـو يحـاول دائمًـا إقنـاع الآخـرين بأنـه يفهـم كـل شـيء، أنـا أمقـت المحـامين بـصفة عامـة، لكنـي أمقـت هـذا المحامي بشكل خاص، (عاطف) هو الذي جلبه لي، وأكد لـي أنـه خبير بمثل هذا النوع من القضايا، البراعة الوحيدة التـي يمكنني أن أقتنـع بها هي تلك البراعة التي تخرجنـي من هنا، لكنـه من اللقـاء الأول مقتنـع – ويحاول أن يقنعني– بأن البراءة مستحيلة، وأن معركتنا ستكون فقط في إطار تحويل القضية من اتجار إلى تعاطٍ، ويزعم أنه نجح في ذلك!

قال لي (عاطف) في محاولة لإقناعه به:–

– "كل المحامين الذي قصدتهم طلبوا مبالغ ضخمة، هو الوحيد الذي أبدى استعدادًا للتفاهم حول أتعابه، كما أنـه لديـه خبرة لا بأس بها فـي هذا النوع من القضايا!"

وبالطبع في محبسي لم يكن أمامي سبيل سوى الثقة فـي (عاطف) واختياراتـه، لأنـه صديقي حقًا، ولا يوجد أي سبب يدفعه لخداعي، لكنـي لم أثق بهذا المحامي ألبتة، من أول ما وقعت عيني عليه!

لا أعرف أحدًا من الحاضرين إطلاقًا سوى ذلك المحامي البدين الوغد! أعتقد أنهم هنا من أجل القضايا الأخرى التي سبقت وتلي قضيتي، سمعت الشهقات مرارًا مع كل نطق بالحكم، مع بعض النحيب، المرعب أني لم أسمع قط الزغاريد التي تقترن عادة بالبراءة، لأن هذا القاضي العابس المتجهم لم يصدر حكمًا بالبراءة قط طيلة وقوفي في هذا القفص، كل الأحكام التي أصدرها كانت بالسجن لمدد متفاوتة، أقصاها المؤبد، وأقل حكم كانت السجن ثلاث سنوات!

هل أكون أنا صاحب الحكم الأخف من بين كل الماثلين بجواري بهذا القفص الحديدي البغيض؟ حتى هؤلاء الواقفون بجواري في القفص لا أعرف أحدًا منهم، وإن كنت أشبّه على بعضهم أنهم كانوا معي بالحبس الاحتياطي، لكني لا أعرف أسماءهم!

الحاجب ينادي اسمي بحماسة.. بنشوة.. بظفر.. بتشفٍّ..

لقد حانت اللحظة!

- "حكمت المحكمة حضوريًا، على المتهم (ياسر محمد السيد عبد الرحيم) بالسجن خمس عشرة سنة مع الشغل!!"

تبًا! لقد خدعني ذلك المحامي الوغد البدين!!

***

(٢)

اسمه (منصور)، لم أهتم بمعرفة بقية اسمه، لست حاجبًا أنادي الناس بكامل أسمائهم، لكن أغلب الناس هنا يميلون لمناداته باسم

(مـانص) اختـصارًا، لكـن بكـل الأحـوال اشـتهر اسـمه بـين المـساجين والسجانين بصورة غريبة!

قابلتــه أول مــرة بــالقفص أثنــاء محــاكمتي، وكانــت قــضيته ســابقة لقضيتي، وأذكر أن القاضي ناداه باسمه كاملًا ليتأكد من حضوره، فرفع يده وقال بثبات:-

- "نعم.."

أول شـيء لفت نظري إليـه ذلـك الثبات وهو يجيب القاضـي، تقريبًا كـان الوحيـد فــي القفـص الـذي يقـف بثبـات واعتـداد، وكأنــه يجلـس بمقصورة أحد الملاعب يتابع مباراة كرة، لا قفص اتهام بمحكمة ينتظر النطق بالحكم عليه.. لكن ثباته وهو يجيب نداء القاضـي لا يساوي شيئًا أمام ثباته وهو يستقبل الحكم بالأشغال الشاقة المؤبدة!

مستعد لأن أقسم عشرات المرات أنـي رأيتـه يبتسم حين صـدر هذا الحكم القاسي عليه، أنا نفسي انتفضت هلعًا عند سماع كلمة (المؤبدة)، علـى الرغم من أنهـا لا تخصني بـالمرة، لكـن شعوري كـان ذات شعور شخص عبرت بجوار أذنه رصاصة لتصيب شخصًا آخر، لكني لم أر شخصًا يصاب برصاصة فيبتسم بثبات هكذا!

الأدهى أنـه التفت نحوي حينهـا، ورآنـي أنظر إليه بهلـع، فغمز بعينـه بطريقة عجيبة، وما زالت تلك الابتسامة الغريبة ترتسم على شفتيه، وقد جعلتنـي غمزتـه أنـتفض بقوة أكبر، وبـالطبع كـان انطبـاعي الأول عنـه: أنه شخص مجنون، أو شخص من عُتاة الإجرام، والسجن لا يمثل له

شيئًا مؤذيًا!

هو شاب مثلي، غالبًا في نفس سني، في التاسعة والعشرين من عمره، وعرفت فيما بعد أنه يكبرني بعام واحد، وسيم الملامح إلى حد كبير، أشقر، ذو عينين خضراوين، ومع ذلك لا يبدو مرفهًا أو طريًا كما يحلو للبعض أن يقول، بل يبدو من المثقفين الذين خرجوا من الطبقات الفقيرة، على جانبي وجهه ورأسه آثار نظارة طبية، يبدو أنه اعتاد وضعها فوق عينيه طيلة سنوات، ثم لسبب ما تخلى عنها، سمته بوجه عام هادئ جدًا، يبدو مثقفًا أكثر مما يبدو مجرمًا..

الشيء المفزع: أنه أدين بتهم تتعلق بتخريب ممتلكات عامة وتكدير السلم العام وأشياء من هذا القبيل، ربما كان يتوقع الحكم بالإعدام، وسُرّ بتخفيف الحكم إلى مؤبد، الله أعلم.. لكن من يراه من أول وهلة – فضلًا عمن يعاشره عن قرب– لا يمكن أن يصدق أبدًا أنه مجرم!

ومع ذلك فإنه لم يسترعِ اهتمامي إلا في تلك اللحظة، وبعدها انشغلت بالقاضي وما يصدره من أحكام، وبالمحامي الوغد البدين الذي وعدني بأني لن أمكث في السجن أكثر من عدة أشهر، ولغياب جميع أسرتي عن المحاكمة، وأهم شيء: بالحكم الذي أترقب صدروه عليّ، وحين صدر الحكم كنت في حالة انهيار تام، والشيء الوحيد الذي أذكره في تلك اللحظة هذه اليد النحيلة التي أمسكت بعضدي، وذلك الصوت الهادئ العميق الذي تسلل إلى أذنيّ وهو يقول:–

– "لا تشغل بالك بحكم المحكمة، اهتم فقط بحكمك على نفسك!"

وبالطبع لم أعِ حرفًا واحدًا مما سمعت وقتها، لكني عرفت فيما بعد أنه كان صوت ذلك المدعو (منصور) رفيق السجن الجديد.. بل رفيق الظلام!

***

(٣)

ذراعه يستكين على كتفها الرقيق، أم أنها هي التي كانت تستكين تحت ذراعه؟ يجلسان ملتصقين داخل الجاكوار الفارهة، التي يقترب سعرها من مليوني جنيه.

الابتسامة هي ذات الابتسامة التي طالما نلتها منها، لكنها لم تعد مرتسمة لي أنا!

النظرة ذات النظرة.. لكنها لم تعد موجهة لي أنا!

ذات الملامح الدقيقة الفاتنة.. غير أن وجهها الساحر ازداد توردًا وسطوعًا!

***

(٤)

كلوحة ذات لون واحد سائد، ظهرت فيها بقعة صغيرة ذات لون مغاير، لا أدري حتى الآن إن كانت اللوحة البيضاء والبقعة سوداء أم العكس، فقط أعرف أن تلك البقعة كانت بارزة جدًا في حياتي.. إنها (وفاء) ابنة الصائغ!!

دخلت حياتي في المرحلة الثانوية، وأنا أبدأ رحلة المراهقة، لكنها كانت أكثر نضجًا وذكاء، ولن أقول أكثر جمالًا لأنها كانت –وما زالت– أجمل من بالأرض جميعًا!

كانت مشاعرنا كماء الصنبور حين يفتح فيبدأ التدفق برفق، ثم ينهمر بغزارة، ثم يقل التدفق تدريجيًا حتى يختزل في قطرات واهنة متقطعة، قبل أن يخمد تمامًا ويتوقف عن التدفق، وتختفي حتى القطرات! أو كشمس الشتاء حين تولد في الصباح دافئة حنون، ثم تتوهج تدريجيًا وتصل إلى ذروة الوهج والحرارة بالظهيرة، قبل أن تزول وتتحدر شيئًا فشيئًا إلى أن يواريها الغروب، ولا يتبقى منها سوى احمرار الشفق، الذي سرعان ما يبتلعه الظلام!

كانت مشاعرنا نقية شفافة كمياه جدول صافٍ، أنا البادئ، لكن هذا هو الطبيعي مع أي حسناء ملائكية صغيرة مثلها، تفتحت وسط حديقة من الأعين المراهقة، كل من بالمدرسة كانوا يحبونها، كل من بالمدرسة كانوا يتلهفون عليها، بما في ذلك المعلمون أنفسهم، قبل حتى أولئك الطلاب الصبية المراهقين!

قال لي (عاطف) بخبث:-

- "بنت كالفرسة، عيونها ملونة كالأجنبيات، وأبوها صائغ، يملك الكثير من الأموال.. إنها تناسب جميع الأذواق، الأستاذ (رأفت) سيموت عليها، راقب نظراته فقط!"

جميلة ذات أعين فيروزية أستطيع أن أرى ذلك، كما أستطيع أن أرى كل تلك النظرات المتلهفة التي تتوجه نحوها طيلة الوقت، لا الأستاذ (رأفت) فحسب، لكن من أين عرف أن والدها يملك الكثير من الأموال؟

– "أيها الغبي! وهل يوجد صائغ فقير؟ إنهم غارقون في الذهب غرقًا.."

لي عم يعمل بمكتب بريد، طوال الوقت يعد في أموال السحب والإيداع لعملاء المكتب، لكنه فقير رغم ذلك، لماذا يكون هذا مختلفًا؟

– "لأن الأموال التي في البريد ملك الزبائن والحكومة، لكن الذهب المشكل في ذلك المحل ملك لصاحبه فقط، والدها.. كما أنه يتجر فيه ويربح يوميًا، لديه سيارة فخمة، وبناية شاهقة، وما خفي كان أعظم!"

لا أعرف لماذا كنت أجادل في هذه النقطة، رغم اقتناعي بما يقول، ربما لأبعد عن نفسي فكرة اهتمامي بتلك الأموال التي يملكها والدها، والتي بالتأكيد لا أملكها أنا وعائلتي كلها..

والدي من الطبقة التي إذا دللناها قلنا عنها: طبقة كادحة، وإذا تخلينا عن التدليل والتنميق قلنا: طبقة مطحونة، طبقة مقهورة، طبقة مستعبدة، كان يعمل معلمًا بمدرسة ابتدائية، يتقاضى راتبًا ضئيلًا بالتأكيد لا يكفي احتياجات أسرته الضرورية، فضلًا عن الكماليات، لديه زوجة، وخمسة أبناء، افتتح له مكتبة لبيع لكراسات والأقلام والأدوات المدرسية في محاولة منه لتوفير دخل يكفي متطلبات زوجته وأبنائه الخمسة، لكنه مع ذلك لا يكفي على الإطلاق! مما اضطرني –باعتباري أكبر هؤلاء

الأبناء– للبحث عن عمل في سن مبكرة، رغم مواظبتي على دراستي حتى حصلت على شهادة جامعية! وهكذا وجدت نفسي صبيًا مراهقًا يعجب بحسناء فاتنة، ابنة صائغ ثري، تدرس معه بذات المدرسة!

لم أكن بحاجة إلى إقناع باستحالة هذا الحب، ولم أكن بحاجة إلى إقناع بأن أحتفظ بإعجابي لنفسي، وأجتهد في إخفاء نظراتي الوالهة المختلسة إلى تلك الحسناء كي لا تلحظها، من بين عشرات النظرات الوالهة الحسناء التي تسعى إليها قصدًا كي تلاحظها! لأفاجأ ذات يوم بأنها لم تلاحظ سوى نظراتي أنا المخبأة من بين جميع النظرات الأخرى!

***

(٥)

قال لي (منصور) في ليلة من ليالي السجن الطويلة المظلمة:–

– "هن أدقّ ملاحظة منا يا صديقي.. ولديهن حواس أقوى من حواسنا، هن لسن بحاجة إلى الالتفات كي يبصرن الأشياء! بوسعهن أن يريننا من حيث لا نشعر"

أعتقد أني عرفت ذلك قبل أن يخبرني به (منصور) بسنوات طويلة، لكني لم أعرف في ذاك الوقت لماذا أنا بالذات من بين الجميع! فلم أكن الأكثر وسامة، بل على العكس، كنت الأكثر وضاعة وتشردًا، ولم أكن الأذكى، بل كنت متوسط الذكاء والنبوغ، وبالتأكيد كنت في قاع الطبقات الاجتماعية المعروفة..

باختصار لم أكن أملك أي شيء يلفت انتباه حسناء مثل (وفاء)، أو حتى دونها!!

- "لقد كنت مختلفًا!!"

كذا قالت لي، واستغرقت وقتًا طويلًا حتى أكتشف طبيعة هذا الاختلاف، وفي كل مرة كانت تقول:-

- "لا أستطيع أن أحدد شيئًا معينًا.. فقط أعرف أنك كنت مختلفًا!"

لكني كنت فعلًا بحاجة إلى أن أعرف.. وكنت ألحّ كثيرًا في السؤال، حتى قالت لي ذات يوم:-

- "أعتقد أنك الرجل الوحيد في هذا العالم الذي لا يسعى لإثبات أنه الأفضل، أو لإقناع الآخرين بأنه يعرف كل شيء، وقادر على أي شيء.. أنت الرجل الوحيد الذي لا يسعى للإمساك بزمام الأمور، وتحويل الأنثى إلى شيء يحتفظ به في جيبه، ويخرجه فقط إذا أراد التطلع إليه، ثم يعيده إلى جيبه مرة أخرى!!"

- "هل عرفت ذلك منذ البداية؟"

تجيب في عذوبة:-

- "فقط الجزء الأول كان البداية!"

(وفاء) نجمة عالية ساطعة، تخلت عن موقعها في كبد السماء، لتهبط إليّ! حلم من عوالم (أليس) وجدت نفسي مستغرقًا فيه حتى النخاع!

كانت (وفاء) نجمة تزداد كل يوم تألقًا وتوهجًا، في المدرسة الثانوية كانت أجمل بنت ترتدي الزي المدرسي، وتحمل كتب المدرسة، وتمسك بالقلم، وحين انتقلنا إلى كلية الآداب كانت أجمل بنت ترتدي الثياب الأنيقة المحتشمة التي تليق بالجامعة، لبست النظارة فزادتها فتنة، عقصت شعرها من الخلف ذيل حصان فأضحت سحرًا مجسمًا يمشي على الأرض.

بدأ حبنا في المرحلة الثانوية سرًا، نظرات مختلسة، بسمات مختلسة، كلمات مختلسة، ثم لم يلبث أن انتقل إلى العلن بانتقالنا إلى الجامعة، حيث اخترنا أن نكون معًا بذات الكلية، وذات القسم، واختارت هي أن نكون معًا بكل مكان فيها، واعتاد الجميع أن يروني بجانبها، في كل مكان داخل الجامعة.

لم أكن بحاجة إلى أن أسمعهم وهم يلومونها على اختياري أنا بالذات، بالرغم من أنها كانت تستطيع الحصول على من هو أفضل مني ألف مرة، وهل كان ثمة أحد ليس أفضل مني بهذا العالم؟

كنت مجرد شاب بسيط يبدو أكبر من سنه، يرتدي أسمالًا وسط أقوام لا يفعلون شيئًا سوى التأنق، شاب لا يلفت نظرًا، ولا يثير فضولًا، ولا يجذب اهتمامًا، ولا يعلق بذاكرة أحد إلا على سبيل التندر، شاب قد تنظر إليه ولا تراه لعدم وجود أي شيء به يلفت الأنظار، ومع ذلك استطاع الفوز بقلب تلك الفاتنة التي يتمناها كل من يراها.. أستطيع أن أعي عبارات اللوم الموجهة إليها دون أن أسمعها:-

- "ألم تجدي سوى هذا؟"

- "ما الذي يعجبك في هذا الوضيع؟"

- "يا إلهي! ذوقك في غاية الشناعة!"

أستطيع أن أعي كل هذا وأكثر، لكن ماذا يعنيني من هذا كله ما دامت النجمة تريد أن تدنو لي أنا من بينهم؟ كانت عيناها تقول لي في رقة ونعومة:-

- "(ياسر) حبيبي، دعك منهم، أنت لي أنا.. ولا أرى سواك! ولن أستمع لما يقولون.."

حسنٌ.. سأدعني منهم، المهم أني معك يا (وفاء)، أنت نجمتي الساطعة، التي تبهر الجميع، لكنها لا تدنو إلا لي وحدي!

ويستمر ماء الصنبور في التدفق، وتزداد الشمس سطوعًا وتوهجًا.

***

(٦)

لكل بداية نهاية.. لكن هل لكل نهاية بداية؟

متى بدأ الصنبور يخفف من دفق الماء؟ ومتى بدأت الشمس تنحدر نحو الغروب؟

الأمر يبدو كتلك اللحظة التي تسلم نفسك فيها إلى النوم، وحين تفيق في الصباح لا تذكر متى كانت تلك اللحظة بالتحديد! تستطيع أن تحدد آخر وقت وعاه عقلك، لكنك تعرف أن ثمة وقتًا فاصلًا بين هذا الوقت الذي وعيته، وتلك اللحظة التي غبت فيها عن الوعي، لكنك لن تعرف

-مهما حاولت- أن تقدر ذلك الوقت الفاصل، ولا أن تحدد تلك اللحظة الأولى التي انتقلت فيها لعالم السبات! فقط عرفت أن ثمة شيئًا ليس على ما يرام، لكن متى بدأ هذا الشيء؟ لا أعرف.. لا أستطيع أن أحدد.

لا أعرف متى خبا ذلك الشغف الذي كان يطل دومًا متألقًا من عينيها؟ ولا متى تلاشت تلك الابتسامة التي تتوهج على شفتيها الرقيقتين كلما التقت أعيننا.

كنا على وشك إنهاء دراستنا الجامعية، وبالرغم من أننا طالبان بكلية الآداب إلا أن لقاءاتنا كانت دومًا بأي مكان بالجامعة إلا كلية الآداب، ومع الوقت لم أعد ألقاها إلا بكلية الآداب، وكانت دومًا متعجلة للحاق بشيء ما، ثم ..... لم أعد ألقاها على الإطلاق!

شيء ما تغير! لا أدري ما هو..

- "الظروف فقط.. ظروفي تغيرت!"

- "أية ظروف؟!"

- "سأخبرك فيما بعد.. سلام"

ثم تنتهي المحادثة، وأنا أنتظر الـ (فيما بعد)، وهو لا يجيء، ثم جاء -بعد طول انتظار- بدلًا منه:-

- "آسفة يا (ياسر).. أعلم أن هذا قاسٍ عليك، بل على كلينا في الواقع، لكن تأكد أنه يحدث رغمًا عني.. لا أستطيع الاستمرار في هذا بعد اليوم.. يجب أن .....!"

لماذا يا (وفاء)؟ لماذا أصدرت هذا الحكم القاتل؟

العجيب أني كنت أعرف السبب، ومع ذلك ألححت عليها حتى أسمعه منها، وهي لم تضن عليّ به:-

- "أنت تعرف أنك لن تستطيع أن توفر لي الحياة اللائقة، بل إنك حتى لا تستطيع أن تفكر مجرد تفكير في الزواج مني، أو حتى من أخرى سواي، إلى متى سنظل هكذا مجرد حبيبين؟"

معك حق يا (وفاء).. معك كل الحق! لكن لمَ لمْ تتنبهي لهذا سوى الآن؟ أريد جوابًا عن هذا السؤال الأخير، وأعدك بعدها أن أرحل بهدوء، ولا أزعج حياتك بعد اليوم! لمَ لمْ تتنبهي لهذا قبل اليوم؟

لكنها هذه المرة ضنت بالجواب!! وذهبت بلا رجوع! والجواب أتاني مصادفة بعد أشهر طويلة، وعلى غير انتظار، حين عثرت على عمل حقير كعامل في (بنزينة)، وأقبلت عليّ تلك السيارة الجاكوار الفارهة!

ذراعه كان يستكين على كتفها الرقيق، أم أنها هي التي كانت تستكين تحت ذراعه؟ يجلسان ملتصقين داخل الجاكوار الفارهة، التي يقترب سعرها من مليوني جنيه.

الابتسامة ذات الابتسامة، لكنها لم تعد مرتسمة لي أنا!

النظرة ذات النظرة.. لكنها لم تعد موجهة لي أنا!

ذات الملامح الدقيقة الفاتنة.. غير أن وجهها الساحر ازداد توردًا وسطوعًا!

***

(٧)

- "ديكاميرون!"

هكذا نطقها بطريقة غامضة، جعلت الجميع -وأنا بينهم- ينظرون إليه بجهل وغباء! رددها مرة أخرى، بذات الطريقة:-

- "ديكاميرون!"

ودون أن يسأله أحد تطوع للجواب والتوضيح:-

- "(الأيام العشرة)، لـ (جيوفاني بوكاتشيو)، تدور أحداثها في زمن وقوع الوباء في فلورنسا، حيث فر ثلاثة فتيان، وسبع فتيات من الموت الأسود إلى خارج المدينة، وتحصنوا بمنزل منعزل، وأرادوا تسلية أنفسهم في أمسيات العزلة بسرد القصص والحكايات حتى ينتهي الوباء.."

ما زلنا ننظر إليه بجهل وغباء، فأضاف بصورة مباشرة:-

- "هذا ما أقترح عليكم أن نفعله هنا!"

لسنا فارين من وباء، بل مسجونين لمدد متفاوتة، ذلك المدعو (منصور) يريد استعراض ثقافته علينا، طبعًا اقتراحه قوبل منذ البداية بالاستنكار، لا بل بالاستهزاء، أخذ نصيبًا وافرًا من التهكم والسخرية، فلم نكن بحاجة لاقتراحه هذا، فنحن لا نفعل شيئًا بالسجن سوى النوم والثرثرة، وسرد الحكايات عن الماضي السعيد الذي كنا فيه في الهواء الطلق، لتمضية وقتنا الذي يمر ببطء السلحفاء، لكنه كان يريد ممارسة هذه الثرثرة بشكل أكثر تنظيمًا وجماعية، فبدلًا من أن ننقسم لحلقات ومجموعات متفرقة ننضم معًا لنشكل مجموعة واحدة، واحد منها فقط

هو الذي يحكي، والباقون يستمعون باهتمام، ثم نتناوب أدوار الحكي وفق ترتيب معين!

لكنه لم يأبه باستهزائنا، ونجح في إقناع مجموعة صغيرة بفكرته، ودعاني للانضمام إليها، ولبيت الدعوة بالفعل، لكن المجموعة أخذت في الاتساع تدريجيًا لتشمل العنبر كله بالنهاية، والذين سخروا منه بالأمس تحمسوا للفكرة فيما بعد، وأنا واحد منهم، حتى أن أحدنا كان ينتظر دوره بلهفة، وخلال هذا الانتظار يبحث في ذاكرته وذهنه عما سيحكيه للآخرين، ويدرب نفسه على سرده بطريقة جيدة تنال استحسانهم!

عن نفسي لم أكن أصدق –ولا أستسيغ– أكثر ما يحكى هنا، فـ (الشيمي) لا يفتأ يحكي عن معاركه البطولية التي أظهر فيها قوته وشجاعته، وكيف تمكن من ضرب خمسة –أو أكثر– بمفرده في بعض تلك المعارك، و(رمضان) استغرق في الحكي عن مغامراته العاطفية والجنسية، أما (حمزة) فكان يتباهى بجرائمه التي ارتكبها من تكسير وتحطيم وإتلاف واعتداء على الغير، وصلت إلى حد القتل، ويتباهى أكثر بإفلاته من العقوبة في أكثر هذه الجرائم.....!

كان (منصور) يستمع إلى كل هذا بحماسة غريبة، بل كان لا يكتفي بالاستماع، وإنما يقوم بتشجيعهم، وأحيانًا تصحيح عباراتهم، وأحيانًا أخرى التعقيب أو التخمين لما يحدث تاليًا، وهذا ما أكسبه شعبية جارفة في العنبر، وانتقلت هذه الشعبية إلى العنابر المجاورة، حتى كان

البعض من سجناء العنابر الأخرى يطلبون –مازحين– اقتراضه منا بعض الليالي!

أنا نفسي تغير انطباعي عنه عما كان عليه في بادئ الأمر، فقد كنت في البداية أراه مجرد شخص متحذلق يدعي الثقافة، ويميل إلى استعراض معلوماته على الآخرين، مع التظاهر بالعمق والحكمة طيلة الوقت، وأنا أمقت هذا النوع من الناس كثيرًا، لكني مع الوقت بدأت أكتشف أن هذه طبيعته فعلًا، ولا يتصنعها، وأنه من النوع الذي يميل دائمًا إلى مساعدة الآخرين، وأذكر مرة أني سألته:–

– "هل تصدق ما يحكونه هنا؟ أعني في هذه الحلقات التي نعقدها كل ليلة؟"

أجاب ببساطة:–

– "بالطبع لا.. لكن ليس هذا هو المراد، المهم أن يستغرقوا في الحكي، بغض النظر عن الموضوع أو الفحوى!"

تساءلت في حيرة:–

– "تعني التسلية، مهما كان ما يحكى فيها؟"

قال بحسم:–

– "بل أعني التفريغ.. كل السجناء هنا يعانون من ضغوط رهيبة: يأس – إحباط – غضب – إحساس بالظلم – بالمهانة – بالفقد – بالحنين – بالخزي.. كل هذا يضع ضغوطًا رهيبة على عواتقهم، وهذه الضغوط لا يمكنهم تفريغها على السجانين، وإنما على بعضهم البعض،

المهم أن نجد الطريقة الملائمة لهذا التفريغ، بديلًا عن المشاحنات والعراك!"

فهمت الآن.. إنها زاوية لم تخطر على بالي قط! وقد لاحظت آثارها في الواقع، فـ (الشيمي) و(حمزة) كانا لا يطيق أحدهما الآخر، ويتعاركان على أتفه الأسباب، لكنهما كفا عن ذلك منذ بدأت هذه الحلقات، لقد أصبح العنبر كله أكثر ودًا وانسجامًا منذ بدأنا هذا الأمر، وهذا بالتأكيد يحسب لصاحبنا (منصور)!

أتأمله ببنيانه النحيل، وسمته الوقور الواعي، أشعر بالدهشة لأنه مدان بجرائم مريعة، ووددت لو سألته عن حقيقة هذا، لكني أتحرج من الخوض في هذا الأمور، لكني سمعت من بعض السجناء أنه مسجون سياسي، ألقوه بين الجنائيين إمعانًا في إذلاله وإخضاعه.

لكن حانت الفرصة ذات يوم ونحن معًا بفناء السجن، حين بدأ هو بسؤالي عن جريمتي، فأجبت بانكسار:-

- "لقد تم التغرير بي.. كنت أعمل مع شخص يتجر بالكوكايين دون أن أعرف، وكانت المباحث تراقبه دون أن أعرف أيضًا، وذات يوم داهموا المكان الذي كنا فيه، ووجدوا البضاعة المحظورة!"

ابتسمت في مرارة وأنا أضيف:-

- "المشكلة أنهم داهموا المكان قبل حضوره، وبالتالي أفلت هو من الأمر، حيث نفى تمامًا أن يكون على علم بأي شيء، وصدقوه هو، وكذبوا الآخرين وأنا منهم! إنهم يصدقون الكبار فقط!"

ظل ينظر إليّ صامتًا لبرهة، ثم قال:-

- "أعتقد أنك ستعاني هنا كثيرًا يا صديقي!"

لم أفهم ما يقصده بهذه العبارة، وهو لم يوضح، فتغاضيت عن الأمر واسترت:-

- "لقد حاول محاميّ الوغد أن يحول القضية من اتجار إلى تعاطٍ، لكنه أخفق في هذا، الآن هو استأنف الحكم، ويحاول أن يعشمني بأمل جديد، لكني لم أعد أعلق آمالًا على أي شيء!"

هز رأسه بلا معنى، وظل صامتًا.. فوجدت الفرصة ملائمة لسؤاله:-

- "وأنت؟ كيف وصلت إلى هنا؟"

تنهد، ثم أجاب بصوت هادئ:-

- "الرفض.. أُدِنت بالرفض!"

ماذا يفترض أن يعني هذا؟ هل الرفض الجريمة يعاقب عليها الناس؟ ابتسم قائلًا:-

- "إنها أكبر جريمة في نظرهم.. كل الجرائم عداها هينة"

ما زلت لا أفهم! لكني قررت تجاوز الأمر كي لا أظهر جهلي أمامه، وسألته:-

- "وهل فعلتها حقًا؟ أم أنك مثلي مدان بشيء لم تقترفه؟"

نظر إليّ تلك النظرة المبهمة، وقال بحزم:-

- "لا لست مثلك بكل تأكيد!"

ماذا يعني هذا؟ هل هذا اعتراف منه بجريمته؟ من النادر أن نقابل أحدًا يعترف بجرائمه هنا، إلا على سبيل التباهي، لهذا دهشت من اعترافه غير الصريح، كما أني من البداية لا أستسيغ فكرة أن يكون هذا الشاب مجرمًا من الأساس!

لكنه أضاف بذات الهدوء:-

- "ثمة قضية أخرى أحاكم عليها، ربما يصل الحكم فيها إلى الإعدام.."

يا إلهي! الإعدام؟!

-"لماذا؟ ماذا فعلت بالضبط؟"

لم يجب على سؤالي، لكن ما أزعجني أكثر أنه يتحدث عن الأمر بهدوء شديد، كما لو كان شيئًا غير مؤثر بالمرة.. إنه شخص غريب.. غريب.

ضحك بطريقة غريبة، وقال:-

- "يسعدني أنك ترفع من معنوياتي!"

اعتذرت له عن ذلك، لكنه استعاد جديته، وقال:-

- "الشيء الوحيد الذي أنصحك به: التمسك بالرفض والأمل، لا تفقد أيًا منهما مهما حدث لك.. هل تفهمني؟!"

لكني قلت له بحدة:-

- "رفض ماذا؟ وما الفائدة وأنا سأظل ملقى هنا لسنوات طويلة؟ وأي أمل وأنت محكوم عليك بالمؤبد، وربما يحكم عليك بالإعدام؟!"

هز كتفيه بهدوء وقال ساخرًا:-

- "ربما ينقطع الحبل وهم يشنقونني! أليست الحبال تنقطع بطبيعتها أحيانًا؟"

هذا عبث! هراء! لن أوهم نفسي بحدوث المستحيل، ولن أعيش على وهم كاذب! فلا توجد أي احتمالات لنجاتي أو نجاته! وضع يديه في جيبيه وأطرق إلى الأرض لحظة، ثم التفت إليّ قائلًا:-

- "دائمًا توجد احتمالات.. كأن نموت مثلًا خلال ساعات، أو أيام، أو أشهر! ألم تفكر في هذا الاحتمال؟ أو ربما حالفنا الحظ ووجدنا فرصة للهروب كـ (إدموند دانتي)، أو ربما -وهو الأهم- حدث التغيير المنشود، واستقامت الموازين.. الاحتمالات كثيرة صدقني، لكن أهم شيء تعلمته من حياتي: ألا أراهن على أي احتمال مستقبلي، بل أراهن على نفسي وموقفي مما يحدث حوالي في الوقت الراهن!"

ثم استطرد وهو يهم بالانصراف عني:-

- "بالمناسبة أنت تذكرني بصديق طفولة اسمه (عمر)، كان دومًا يفر مثلك، يفر من الحقيقة ومن كل شيء، قابلته منذ فترة في الحبس لقاء خاطفًا، في الواقع لم أتوقع أن ألقاه في مثل هذا المكان، فأمثال هؤلاء عادة ينتهي بهم الأمر في المصحات العقلية، وهو ما أتوقعه أن يحدث لك في يوم من الأيام.. لديّ نصيحة أخرى لك: أن تراجع حكمك على نفسك! هذا هو الاستئناف الأهم بالنسبة لك الآن!"

ثم ابتعد عني بخطوات سريعة!

***

(٨)

للمرة الأولى أشاهد مثل هذه الفرحة في عيون أحدهم!

بدا لي (صالح) أشبه بطفل جاءوه بهدية يحبها، أو كان يتمناها، وهو الذي يدنو من الخمسين، وشاب أكثر شعر رأسه، وامتلأ وجهه بالتجاعيد، كان يبدو للجميع أكبر من سنه، لكنه اليوم بدا كطفل في السابعة، حتى أنه راح يحتفل كطفل في السابعة بالفعل، حيث طفق يتواثب ويصفق، ويصدر أصواتًا تدل على الفرح كالتي يصدرها الأطفال، وبالطبع شاركه الجميع هذا الاحتفال الطفولي، وطفقنا نتواثب ونصرخ حوله!

في الحقيقة لا ألومه أبدًا، فهو ملقى ها هنا في السجن منذ ما يقرب من خمس عشرة سنة، وقد علم اليوم أنهم سيطلقون سراحه خلال أيام قليلة، فكيف لا يفرح ويتواثب كالأطفال؟!

خمس عشرة سنة! يا لها من مدة طويلة، كيف استطاع الصمود كل هذه السنين؟ لكن السؤال الحقيقي الذي كان يشغلني: هل بوسعي الصمود مثله، وأنا محكوم عليّ بنفس المدة؟

علمت أن (صالح) دخل السجن وكان عمر أصغر أبنائه أربع سنوات، وهذا يعني أن عمر هذا الابن الآن يدنو من العشرين، هذا يعمق الإحساس بطول المدة التي قضاها هنا، أربع سنوات يعني بالكاد كان يتكلم، وبالكاد كان يركض، الآن صار شابًا يافعًا!

لكني لا أعرف بعد: هل فرحة (صالح) هذه الأيام -قبل خروجه- أكبر، أم فرحته بعد خروجه إلى الهواء الطلق؟ هناك أشياء نفرح كثيرًا بقرب قدومها، لكنها حين تأتي لا تحمل لنا ذاك القدر من السعادة التي كنا نأملها ونترقبها!

لكن (منصور) كالعادة كان له زاوية نظر مختلفة عنا، قال لي:-

- "أنا سعيد لأنه سعيد، هذا يعني أنه لن يصاب برهاب الحرية!"

وقبل أن أستفهم عن معنى ما قاله، تطوع بالشرح قائلًا:-

- "حين يقضي الإنسان زمنًا طويلًا بالسجن قد يتواءم مع جدرانه وقضبانه، وتتولد لديه رهبة من العالم الخارجي، مما يجعله يتمسك ببقائه في السجن، وربما يتوسل -أو حتى يحارب- من أجل الاستمرار به، ومنع خروجه!"

يا إلهي! هل ما يقوله صحيح؟! لقد ملأني حديثه رعبًا، وأنا أتخيل نفسي بعد مرور سنوات عقوبتي، أرفض الخروج لأني أخشى العالم الخارجي!و قررت أن أبتعد عن محادثة (منصور)، وملازمة (صالح) هذه الأيام، على الأقل ملازمة هذا الأخير ستملؤني بالبهجة!

قال لي (صالح) بلهجة ودود:-

- "أعطني عنوان أهلك.."

تعجبت من الطلب، وتساءلت:-

- "لماذا؟!"

تردد قليلًا ثم قال بطيبة وشفقة:-

- "يا بني، أنت معنا بالعنبر منذ عدة أشهر، وقد لاحظنا جميعًا أنك لا تأتيك أية زيارات!"

تبًا! هذا صحيح جدًا! الزيارة الوحيدة التي جاءتني في الشهر الأول من سجني كانت من صديقي (عاطف)، حاول أن يطمئنني بأن المحامي بدأ إجراءات الاستئناف، وثمة أمل في تخفيض العقوبة على الأقل، ثم انقطع (عاطف) عن زيارتي بعدها.. كلهم هنا يتمتعون بزيارات خاصة من أهاليهم، ومقابلات خاصة بزوجاتهم، ليس لي زوجة، لكن يفترض أن لي أهلًا وعائلة! إلا أنهم أدانوني جميعًا قبل أن تدينني المحكمة!

- "سأذهب إليهم، وأجلس معهم، وألين قلوبهم من جهتك!"

هل بلغ بي الأمر هذا الحد؟ الغريب يشفق عليّ، وأبي وأمي وإخوتي لا! أنا واثق من أن أمي تبكيني ليل نهار، وتريد زيارتي، لكن مرضها من جهة، ورفض أبي القاطع من جهة أخرى يحولان بينها وبيني، ولكن ماذا عن إخوتي؟ لماذا لا يفعلها أحدهم ولو خفية بدون علم والدي؟ الإجابة معروفة: لقد تبرءوا مني، تبرءوا مني لأنهم أدانوني، ولن يصدقوا أبدًا أني بريء، وتم التغرير بي!

مؤكد أن أبي يشعر بالخزي والعار بين أهالي الحي، ويتمنى لو لم يكن أنجبني، إنه "دقة قديمة" بحكم جذوره الصعيدية، والشرف والسمعة عنده أهم حتى من أولاده، وقد حدثت الفضيحة من جرائي أنا، لن يحاول أن يتثبت من براءتي، أصدر حكمه عليّ قبل المحكمة، الزيارة

الوحيدة التي حظيت بها منه كان بعد القبض عليّ بأيام قليلة، بعد تحويلي إلى النيابة، التي أمرت بحبسي على ذمة التحقيق، واللقاء كله تلخص في كلمتين: التوبيخ والتكذيب! لم يرد أن يصدق أبدًا أني بريء!

- "شكرًا لك يا عم (صالح)، لا داعي لأن تتعب نفسك بلا فائدة!"

لكنه مصمم على هذه الخدمة:-

- "يا بني، الزمن يلين الصخر، والجفاء كالنار، مع الوقت يضعف حتى ينطفئ، دعني أقم بمحاولتي، عن نفسي لن أخسر شيئًا، وبإذن الله سأعود لزيارتك بصحبة والدك وبعض أهلك، فقط أعطني العنوان.."

ليكن يا عم (صالح).. هاك العنوان، ولكني لن أراهن على شيء!

***

(٩)

ديكاميرون!

الدور عليّ الليلة لأحكي شيئًا، لكني منذ أيام أعتصر ذهني بحثًا عن أي شيء يصلح لهذه الأمسية ولم أجد شيئًا بعد! لقد أتاني الدور مرارًا قبل ذلك، وفي كل مرة كنت أحكي بعضًا من ذكريات طفولتي، حتى نفدت مني الحكايا، ولا أجد شيئًا جديدًا صالحًا للحكي!

أنا بوجه عام لست متحدثًا جيدًا، وأفتقد لكثير من اللباقة، كما أني لست مستمعًا جيدًا أيضًا، وأضيق بالاستماع للآخرين، وأملُّ بسرعة من ذلك، لكني مطالب الليلة بأن أحكي شيئًا، أي شيء..

جاءني (منصور) قرب سريري في الظهيرة يذكرني بالدور، فقلت له:-

- "في الغالب سأتنازل عن الدور لأي شخص آخر، فلست مستعدًا لهذا الليلة!"

لكنه أصرّ، وقال:-

- "لم يحدث أن تتنازل أحدهم عن دوره، فلا تكن أنت البادئ، وتفسد الأمر، وربما نجد آخرين يفعلون مثلك كل ليلة"

هذا لا يعنيني في شيء، إنها لعبتك أنت، ولم أعد متحمسًا لها، قلت لأحسم الأمر:-

- "سأكلم (رمضان) لينوب عني الليلة، سيفرح بهذا كثيرًا، فلديه رصيد كبير من المغامرات العاطفية والجنسية ليحكيها، إن كنتَ ممن يصدق ما يحكيه!"

ابتسم وقال:-

- "وهل تظن أن أحدًا يصدق؟ انظر إلى كرشه المنبعج، ممانعة أنسولين، كوليسترول، دهون، ولا نستبعد السكر أبدًا، إنه ضعيف، ضعيف.. لكنه يخفي ضعفه بحكايات مختلقة عن فحولته الوهمية"..

غمز بعينه وهو يستطرد:-

- "كلهم يفعلون هذا!"

ضرب على كتفي وقال وهو يمضي مبتعدًا:-

- "فكر في شيء تحكيه لنا!"

تبًا! أنا حقًا لا أريد هذا، وليس عندي ما أحكيه، وعن أي شيء أحكي؟ عن أسرتي التي تبرأت مني؟ لي شقيقان أصغر مني، لم يفكر أحدهم حتى في زيارتي خلسة من وراء أبي، لي شقيقتان إحداهما متزوجة، لم تحاول الكبرى حتى دفع زوجها لزيارتي، وهو بالتأكيد ليس واقعًا تحت سيطرة أبي!

ترى كيف حال أمي الآن؟ هل هي حية أم ماتت ولم يخبرني أحد؟ لقد انقطعت كل صلتي تمامًا بالعالم الخارجي الذي يخصني، ربما لو حدث زلزال باليابان قد أسمع به، لكن لو مرض أحد من أسرتي بالإنفلونزا لن أعرف بمرضه على الإطلاق!

هل أحكي لهم عن (وفاء) حبي الوحيد الضائع؟

الحقيقة المؤكدة أني لم أعد أملك أي شيء أقدمه لنفسي -فضلًا عن الآخرين- حتى الحكايا! كذلك لا أملك القدرة على اختلاق حكايا لم تحدث كما يفعل الآخرون! أنا الشخص الذي خسر كل شيء، وفقد كل شيء، وهُزم في كل شيء! لم يعد عندي أمل، ولا حلم، ولا رهان على أي شيء، ولا رغبة في أي شيء!

فليذهب (منصور)، وسهراته، وأيامه العشرة إلى الجحيم!

***

(١٠)

الإضاءة خافتة جدًا، فقط بعض النور الذي يتسلل من بين القضبان، منبعثًا من مصباح باهت معلق بسقف الطرقة الخارجية، لكن

عيونهم كانت تلتمع بالترقب والانتظار! أول ما تكتسبه من حياة السجن: القدرة على الرؤية في الظلام الدامس، ويكفي أقل شعاع من الضوء ليمنحك رؤية جيدة لما حولك، وهكذا استطعت أن أتفرس في ملامحهم، وأبصر السأم في عيون البعض، والحماسة في عيون آخرين!

ديكاميرون.. إنه دوري أنا لأحكي، وكنت أبحث عن بداية مناسبة حين أتاني صوت (مدكور) متعجلًا:-

- "هيا احكِ.. أريد أن أنام!"

المشكلة أنه ينام دائمًا أثناء الحكي، ونوقظه بصعوبة كي يتوجه إلى سريره، وبالتالي لن يفرق معه أن أبادر بالحكي، أو أتأخر فيه! لكني أرى من الترقب في عيون الآخرين ما يحضني على البدء بأسرع ما يمكنني، دون حتى أن أتلقى إشارة البدء من (منصور) الذي يبدو كحكم ساحة في مباراة كرة، لكنه أعطى لي الإشارة على أية حال، قائلًا:-

- "هيا ابدأ.."

وبدأت في الحال!

***

كان (الفولي) غاضبًا بشدة.. ولكن متى لم يكن (الفولي) غاضبًا بشدة؟! (الفولي) يبحث عمن يعاركه.. ولكن متى لم يكن (الفولي) يبحث عمن يعاركه؟!

(الفولي) أضخم تلميذ بالمدرسة الإعدادية، وأكثرهم شراسة، لديه قوة بدنية هائلة، وقدرات عقلية محدودة، وحتى الآن لا أدري أيهما أسوأ!

لم يكن يمر علينا يوم بالمدرسة إلا نرى (الفولي) يمسك بأحد التلامذة ويوسعه ضربًا، ولا أحد منا يجرؤ على التدخل، ولا حتى على إبلاغ أحد المعلمين ليتدخل، لأن (الفولي) يبحث كل يوم عن خصم جديد، أو ضحية جديدة إن شئنا الدقة، ولديه مقدار طفيف من الضمير يجعله يبحث عن سبب للعراك، ولا يرضيه أن يبدأ العدوان بدون سبب، وطبعًا بعد أن يفرغ من ضحيته سيبحث عمن حاول التدخل للحيلولة بينه وبين الضحية، ولو بنية الحجز بينهما فقط، كما أنه لن يدخر وسعًا في البحث عمن أبلغ إدارة المدرسة عن اعتدائه، وكلاهما سبب مريح جدًا لضميره لبدء عدوان جديد.. وهذه المرة وقع اختياره على (فوزي) زميلنا بالصف!

اسمه (حمادة)، هكذا (حمادة)، ليس (محمد) ولا (أحمد) وتم تحريفه إلى (حمادة) على سبيل التدليل، بل هو (حمادة) كما هو موثق بشهادة ميلاده وأوراق التطعيم، وينادى عليه بهذا الاسم في كل المناسبات التي تتطلب الاسم الرسمي، أما (الفولي) فقد علمنا جميعًا أنه لقب لجده، وتوارثه الأبناء والأحفاد من بعده.

لماذا اختار (فوزي) بالذات؟ إنه أكثر التلاميذ ضآلة وانطواءً وخجلًا، ليس فيه ما يغري (الفولي) باستعراض عضلاته عليه لإثبات قوته، يفترض أن يختار خصمًا أكثر ضخامة وقوة، بحيث يكون للانتصار عليه مذاق ماتع ومنعش، لكن هذا ما حدث، ولم يكن ثمة وقت لاكتشاف سبب هذا العدوان هذه المرة!

(فوزي) تلميذ ضئيل الحجم، كما أنه خجول وانطوائي بشدة، لا نذكر أبدًا أنه افتعل مشكلة مع أحد، كان لا يتكلم إلا قليلًا، ولا يفعل شيئًا إلا نادرًا، وبالتالي لا يعلق بالذاكرة، فقط أذكر أنه كان معي أغلب الأوقات، نلعب معًا، ونضحك ونمرح معًا، ونخاف ونبكي معًا، لكني لا أذكر شيئًا له شيئًا خاصًا أو مستقلًا له من دوني!

أذكر أن بعض الصبية كانوا يضايقونه، ويسعون جاهدين لجعله يبكي، وكان بالفعل يبكي، ما أسرع أن يبكي، فكان الآخرون يتدخلون دائمًا لتوبيخ المتسببين في بكائه واتهامهم بالخسة والتنمر، واستضعافهم هذا الصبي الضئيل الواهن!

من المواقف القليلة التي أذكرها لـ (فوزي) في الفترة الابتدائية حب معلمة الرياضيات -الأستاذة (سعاد)- له، وثنائها عليه أغلب الوقت، فقد كان (فوزي) من أنبغ التلاميذ في الحساب، دون غيره من المواد، لكنها كانت تثني عليه لأدبه وهدوئه أكثر مما تثني عليه لنبوغه، فقد كانت تضيق بثرثرتنا وضوضائنا، ويبقى (فوزي) هو التلميذ الأهدأ، والأوحد الذي لا يصدر أية ضوضاء، وكنا نشعر بالحنق والحقد لتفضيلها إياه علينا، فكنا نعيره بها، ونقول له: "يا بتاع (سعاد)" ونكررها مرارًا ولا نتركه حتى يبكي، فنشعر بتأنيب الضمير قليلًا، قبل أن نعاود نفس الفعل بعد أيام!

وأذكر أيضًا أن (فوزي) كان يتيم الأب، توفي أبوه في حادثة قبل أن يدخل الولد المدرسة، وأذكر أنه في بداية كل عام دراسي كان أحد

إداريي المدرسة يدخل الفصل ليسألنا:-

- "من منكم أبوه ميت؟"

وكان (فوزي) لا يرفع يده حتى نشير نحن عليه، ونقول: هذا! وكنا نحسده على هذا اليتم لأنهم يعفون التلاميذ اليتامى من دفع مصاريف الدراسة، فكان لسان حالنا جميعًا: "هنيئًا له!" ومنا من كان يقولها له صراحة!!

كنا جميعًا نتشاجر فيما بيننا إلا هو، كان يتجنب أي شجار، نظرًا لنحافته وضعف بنيانه، حتى لو تعرض للضرب كان يبكي دون أن يقاوم، حتى يشفق عليه أحد الرفقاء فيتدخل لإنقاذه من المعتدي، ولم يكن يبالي بوصفنا له بالجبان، أو معايرتنا له ببكائه، لكن مع دخولنا المدرسة الإعدادية حدث له تغير عجيب، إذ كف عن البكاء نهائيًا، مهما تعرض للسخرية أو الاعتداء، ومهما فقد من الأشياء.

لا أذكر كيف بدأ الشجار، لقد انفصل عنا (فوزي) في الفسحة، وبعد لحظات سمعنا الضجة، ورأينا التفاف التلاميذ على بقعة ما من المدرسة، وهم يطلقون الصيحات، وحين هرولت مع بعض الأصدقاء إلى هناك رأينا (الفولي) جاثمًا فوق شخص ما -لم نميزه في بادئ الأمر- يكيل له الصفعات والسباب، حتى انتبهنا بعد برهة إلى أن الضحية هذه المرة هو (فوزي) رفيقنا..

كان يفترض أن نتدخل لنحميه، فنحن أقرب أصدقائه، لكن خوفنا الشديد من (الفولي) جعلنا نتغاضى عن واجبات واستحقاقات هذه

الصداقة، ووقفنا نشاهد الحدث كالآخرين ونحن نتألم في صمت لما يحدث له!

كان (الفولي) مستمرًا في الضرب والسباب، وهو يزمجر ببعض العبارات من نوعية: "أنا سأعلمك الأدب" .. "كيف تجرؤ؟" .. "سأريك".. وطبعًا لم نهتم لحظة بمعرفة ما الذي فعله (فوزي) وتطلب من (الفولي) أن يعاقبه –أو يعلمه الأدب– عليه، فجميعنا نعلم أن (الفولي) ليس بحاجة إلى سبب، سوى ما يخترعه هو ليريح ضميره شبه الميت!

أما (فوزي) فلم يقاوم هذا الاعتداء أدنى مقاومة، ولا حاول حتى دفع خصمه مجرد الدفع، وظل يتلقى الصفعات واللكمات المؤلمة، وقد احتقن وجهه من الألم، والتمعت عيناه بالدموع التي يحبسها، ومع ذلك لم يتكلم، ولم يبك، ولم يقاوم ألبتة!

ولم يلبث أن اغتاظ (الفولي) نفسه منه، وظل يردد بحدة:–

– "أرني قوتك.. اضربني كما أضربك.. أقول لك: اضربني.."

لدرجة أنه أمسك بيد (فوزي) وأخذ يدفعها دفعًا تجاه وجهه وصدره، ليغريه بمبادلته الضرب، لكن (فوزي) لم يفعلها إطلاقًا، وظل ينظر إلى (الفولي) بثبات وصمت، فاغتاظ (الفولي) أكثر، وواصل توجيه ضرباته إليه، ونحن نكتفي بالمشاهدة!

ظل الأمر كذلك حتى مر أحد المعلمين بالصدفة وانتبه للضجة، وأقبل على الفور ليرفع (الفولي) من فوق (فوزي) وينهال عليه

بالصفعات والركلات والسباب، مع فرك أذنه بقوة، ووعيد هادر بالرفت من المدرسة، قبل أن يتخلى عنه ويسرع إلى (فوزي) الذي نهض مبعثر الثياب، والدم يقطر من شفته، مع بعض الخدوش في وجهه، وأخذه المعلم ومضى به بعيدًا ليصلح من شأنه.

في اليوم التالي رأينا أم (فوزي) جاءت وملأت المدرسة صراخًا وبكاء ووعيدًا، وعلمنا أيضًا أن مدير المدرسة قام بمعاقبة (الفولي) عقابًا مؤلمًا، مع استدعاء ولي أمره، لكن المدهش أننا عرفنا فيما بعد أنه لم يكن (فوزي) من أخبر والدته بالواقعة، وإنما بعض التلاميذ من الجيران هم الذين أخبروها، وهذا أزعجها بشدة، أزعجها حتى البكاء إشفاقًا وألمًا.

والمدهش أكثر أن (الفولي) لم يتعرض لـ (فوزي) بعدها ألبتة، بل كان يتحاشاه، ونما لدينا جميعًا شعور بأن هذا ليس متعلقًا بموقف الأم، ولا العقاب الذي ناله من إدارة المدرسة، فلم يكن (الفولي) يردعه أي عقاب، وكم من مرة عوقب بسبب اعتدائه على تلاميذ آخرين، ولم يردعه ذلك عن معاودة الاعتداء عليهم، وإن كنا لم نستطع أن نحدد السبب الحقيقي لتحاشيه (فوزي) بالذات، ربما رأى البعض أن (الفولي) كف عن الاعتداء على (فوزي) فقط لأنه لم يقاومه، وهذا لا يرضي غرور (الفولي)، ولا يشبع شهوة الاعتداء لديه، فهو يريد خصمًا يبادله الضربات حتى يشعر بقيمة الانتصار عليه.

لكن ثمة سؤال يعترض هذا الاستنتاج: لماذا اعتدى عليه من البداية ما دام هو كذلك؟ أم أنه لم يتوقع ذلك منه؟

الاحتمال الآخر، وهو الذي أميل إليه: أن (الفولي) اكتشف أن (فوزي) مختلف عن الباقين، فهو لم يتعود أن يعتدي على أحد فلا يقاوم، ولا حتى يبكي، هذا مرعب جدًا حتى لمثل (الفولي) ذاته، وأعتقد أن كثيرًا من التلاميذ بدءوا ينظرون إلى (فوزي) بعد هذه الواقعة باعتباره ليس صبيًا طبيعيًا أبدًا، أو على الأقل ليس مثلنا، فنحن ربما نكون قد رأينا من قبل صبيًا يتعرض للضرب المبرح ولا يقاوم، لكننا لم نَرَ من قبل –ولا من بعد– صبيًا يتعرض للضرب المبرح ولا يبكي ألبتة!

أما السؤال الذي ما زال يراود عقلي طوال كل تلك السنين: ما فعله (فوزي) صلابة، أم ضعف واستسلام؟! لكني لم أجد جوابًا لهذا السؤال حتى الآن!

***

(١١)

الأمر واضح حتى في الظلام، حكايتي لم تنل إعجاب أيٍّ منهم! وشعر جميعهم بخيبة أمل، وظلوا ينظرون إليّ بشيء من الحنق!

أعتقد أنها تستحق جائزة أسوأ حكاية منذ بدء حلقات الديكاميرون الخاصة بنا حتى اليوم!

ظلوا برهة يشخصون إليّ بصمت ممتزج بخيبة الأمل، قبل أن يتكلم (حمزة) أولًا، قائلًا:-

- "الجواب الوحيد الذي أعرفه: أنك نذل خسيس، تخليت عن صديقك وهو يتعرض للضرب المبرح، ولم تهب لنجدته! لو كان هو جبانًا فأنت أجبن منه بكثير.."

تعالت صيحات التأييد من الباقين، وساهم فيها شعورهم بخيبة الأمل من حكايتي، مما جعلهم ينتهزون الفرصة لانتقادي على موقفي، وإن كان نقدهم في الأساس يستهدف تلك الحكاية السخيفة التي أضعت وقتهم الثمين في سردها!

أما (منصور) فقط ظل ينظر إليّ بصمت نظرة ثابتة نافذة، جعلتني أشعر بالتوتر، قبل أن يقول أخيرًا بصوته العميق:-

- "لقد فعل صديقك (فوزي) ما يفعله أي مناضل وقع في الأسر، لقد عرف أنه لن يستطيع المقاومة، فشحذ همته لحرمان الخصم من الشعور بلذة الغلبة والانتصار، في مثل هذه الأحوال يحاول الأسرى جاهدين كتمان الصراخ، وإذا تمكنوا من ذلك يشعرون كما لو كانوا هم المنتصرين في هذه الواقعة!"

تبًا لك! كم أكرهه حين يتفلسف! لكني أنا من أعطيته الفرصة على أية حال، وعليّ أن أتحمل فلسفته السخيفة!

لكنه واصل قائلًا:-

- "لا أعرف ما الذي صار إليه صديقك (فوزي) الآن، لكن مثل هذا مكانه الطبيعي السجن، يفترض أن يكون هو معنا هنا لا أنت!"

لم أفهم قصده بالضبط، لكني حتى لم أحاول السؤال، وانتظرت نهاية السهرة كي أنهض إلى فراشي وأستلقي حتى الصباح.. إلا أنني لم أستطع النوم على الإطلاق!

في السجن عادة تكون الأيام الأولى هي الأصعب، والأسوأ نومًا، بعد ذلك يسترخي جسدك ويصبح النوم بمجرد أن تضع رأسك على الوسادة هو الوضع الطبيعي، لكن شيئًا ما أطاح بالنوم عن عيني الليلة، وإن كنت لا أدري ما هذا الشيء بالتحديد، لكني وجدت نفسي أعود لما كنت عليه في الأيام الأولى، حيث أتقلب بلا هوادة، وأنا أستجدي النوم استجداء بلا أمل، بينما أسمع غطيط الآخرين يتردد دون توقف!

كان (منصور) في السرير الذي يعلوني مباشرة، وكنت أظنه نائمًا هو الآخر، حتى سمعت صوته من أعلى يحادثني قائلًا:-

- "لِمَ لا تنام؟"

لم أجب، لأني لا أعرف الجواب أصلًا، وهو لم يكرر السؤال، وأظنه راح في السبات، وهذا جيد، أنا بحاجة لأي شخص يؤنسني الآن إلا هو! لست مستعدًا لتحمل من يتفلسف أو يستعرض ثقافته عليّ، لا سيما الآن.

لا أدري كم مر من الوقت بعدها، لكني وجدت نفسي أحدثه، وأنا أتمنى أن يكون نائمًا لا يسمعني، كي لا يرد عليّ، قلت له:-

- "صار محاسبًا.. ثم مديرًا لبنك استثماري خاص!"

- "من؟!"

للأسف، اتضح أنه لم يزل صاحيًا! أتحدث عن صديقي (فوزي) طبعًا.. من غيره؟

- "أنت قلت: إن مكانه الطبيعي السجن بدلًا مني! لكنك مخطئ!"

انقلبت على جانبي الأيمن، وأنا أضيف:-

- "لقيته مصادفة قبل دخولي السجن بعدة أشهر، كان يركب سيارة فارهة، ولديه سائق خاص، العجيب أنه هو الذي تعرفني، وناداني باسمي، تبادلنا التحية وبعض الكلمات الأخرى، ثم أعطاني بطاقة ورقية فيها اسمه ووظيفته الجديدة وبعض أرقام تليفوناته، وطالبني بأن أحادثه إذا احتجت شيئًا.. لكني لم أحادثه حتى دخلت هنا.."

هل لا يزال يسمعني؟ أم نام بمجرد أن حادثته؟ على كل حال هذا أفضل بالنسبة لي، أنا أريد من يسمعني لا من يناقشني.. لكني حين تأهبت للنوم، وشعرت ببعض النعاس يراود جفوني، أتاني صوته العميق يقول:-

- "إذن ليس هو من استسلم! بل أنت!"

- "..........................!"

***

(١٢)

إلى متى سأظل هنا؟

وماذا بوسعي أن أفعل لأصمد هنا؟

لا أستطيع أن أفكر مثل (منصور)، هو ينتظر أن يموت خلال ساعات، أو أيام، أو أشهر! الموت احتمال جيد بالنسبة له، لكن ليس بالنسبة لي، فأنا لا أريد أن أموت برغم كل شيء، كما ينتظر أن يحالفه الحظ ويجد فرصة للهروب كـ (إدموند دانتي)، الذي لا أعرف من هو أصلًا، لكنه يعرف -كما أنا أعرف- أن هذه الفرصة لن تجيء، إنهم يحيطون بنا بشكل محكم، ولن يمنحونا فرصة للفرار.

ثم احتمال ثالث ينتظره: أن يمرض ويحصل على إفراج صحي.. لكن ما أكثر المرضى حولنا، ولم يحصلوا على هذا الإفراج الذي يحلم به! لا شيء من هذه الاحتمالات سيحدث، حتى الموت لا يحدث حين نتمناه!

إلى متى سأظل هنا؟ وماذا بوسعي أن أفعل لأصمد هنا؟

كل ما أفعله: أني أنام.. ثم أصحو من النوم.. أتناول الطعام.. أثرثر مع الآخرين.. ثم أنام.. ثم أصحو من النوم.. أراقب ضوء النهار الذي يتسلل إلى العنبر، أو ضوء مصابيح الليل الواهنة التي تأتي من الطرقة الخارجية، أو أتشرب ضوء الشمس في الفناء حين يسمحون لنا بالخروج إليه.. ثم أنام.. ثم أصحو من النوم.. أحاول أن أتذكر التقويم لأعرف في أي يوم أنا، وكم مضى عليّ هنا، وكم يتبقى لي حتى أغادر إلى

الهواء الطلق.. ثم أنام.. ثم أصحو من النوم.. أصطف مع الآخرين في طابور الطعام حتى أحصل على وجبتي.. أثرثر مع الآخرين أثناء تناول الطعام.. أثرثر مع الآخرين بعد الانتهاء من الطعام.. ثم أنام.. ثم أصحو من النوم.. أتعارك مع سجين آخر على أتفه الأسباب، ثم أفض عراكًا بين آخرين نشب لأتفه الأسباب.. ثم أنام.. ثم أصحو من النوم.. أثرثر مع الآخرين.. أستمع إلى حكايا أيامنا العشرة السرمدية، وأتظاهر بالتصديق! ثم أنام.. ثم أصحو من النوم.. ثم أنتظر زيارة من أحدهم لا تجيء!!

لا زيارات تأتيني على الإطلاق!

- "ماذا بك؟"

- "لا شيء.."

أنت بالذات أيها المتفلسف لا أريد التحدث معك في أي شيء!

- "تكلم يا رجل.. ما الذي يزعجك؟"

ما الذي يزعجني؟! يا له من سؤال! بل قل: ما الذي لا يزعجني؟ ما الذي لا يقهرني؟ ما الذي لا يقتلني بالبطيء؟!!

- "لا شيء.. اطمئن!"

أبتسم في سخرية وأنا أستطرد:-

- "لا شيء سوى أني سجين منذ أكثر من عامين، وسأظل سجينًا طيلة سنوات أخرى بعيدة.. لا شيء سوى أن استئنافي الحكم قوبل بالرفض لأن المحامي الوغد البدين خدعني مجددًا! لا شيء سوى أن

أسرتي تبرأت مني لذنب لم أقترفه، لا شيء سوى أن عم (صالح) وعدني بأن يذهب إليهم ليقنعهم بزيارتي، ثم انقطعت أخباره ومؤكد أنه نسيني.. لا شيء سوى أني خسرت كل شيء: سمعتي.. حريتي.. عائلتي.. مستقبلي.. كل شيء.. كل شيء.. ماذا تتوقع أن يزعجني في هذه الحياة الجميلة التي أحياها؟!"

من فضلك لا تقل شيئًا.. لا تعقب على أي كلمة من كلامي! تعلم أن تستمع فقط ولو لمرة واحدة في حياتك! هي هذه المرة!!

لكنه كما أتوقع دائمًا لا يعرف كيف يستمع دون أن يتكلم، نظر إليّ تلك النظرة النافذة التي تخيفني أحيانًا، وتستفزني أحيانًا أخرى، ثم قال:-

- "كل ما تحكيه الآن هو أمر واقع، لا خيار لك فيه حاليًا، ربما كان لك خيار فيما مضى، لكن ليس الآن.. السبيل الوحيد للتعايش مع هذا الواقع المرير: الاعتراف به أولًا، ثم النظر إلى مسئوليتك تجاهه.. وأخيرًا: الرفض ومحاولة التغيير، مشكلتك أنك حتى لا تريد أن تعترف، وتصر على إيهام نفسك بغير الحقيقة!"

هتفت فيه بحنق:-

- "أية حقيقة؟ عم تتحدث.. اصمت من فضلك.. اصمت!"

لكنه قال في صرامة وصلابة:-

- "حقيقة أنك مذنب لا بريء.. لم يتم التغرير بك من أحد، ولم يخدعك أحد.. بل أنت غررت بنفسك، وفعلت ما أدانوك به حقيقة!"

- "لم يحدث!"

أيها الوغد! تريدني أن أعترف بجريمة لم أقترفها؟! وتظن أن هذا سيريحني؟ بل هو سيريحك أنت.. أنت الذي تحب أن تبدو كمن يعرف كل شيء، حتى الغيب!

- "أنا لا أعلم الغيب، لكني أستطيع قراءة الآخرين من نظرات عيونهم، من تعبيرات وجوههم، ومن تسارع أنفاسهم، لقد كنا معًا في ذات القفص يوم النطق بالحكم، ونظرت في عينيك ورأيتك مذنبًا يريد أن يتخلص من الذنب بخداع نفسه، هل تذكر ماذا قلت لك حينها؟ لا تشغل بالك بحكم المحكمة، اهتم فقط بحكمك على نفسك!"

لا.. لا أريد أن أذكر شيئًا، ولا أريد حتى أن أراك أمامي، أو أستمع إليك، اغرب عن وجهي الآن وإلا حطمت أنا وجهك!

أنا بريء.. بريء.. هل تفهم؟

***

(١٣)

إلى متى سأظل هنا وأنا بريء؟

وماذا بوسعي أن أفعل لأصمد هنا؟

لا سبيل أمامي هنا سوى: أن أنام.. ثم أصحو من النوم.. أتناول الطعام.. أثرثر مع الآخرين.. ثم أنام.. ثم أصحو من النوم.. أراقب ضوء النهار الذي يتسلل إلى العنبر، أو ضوء مصابيح الليل الواهنة التي تأتي من الطرقة الخارجية، أو أتشرب ضوء الشمس في الفناء

حين يسمحون لنا بالخروج إليه.. ثم أنام.. ثم أصحو من النوم.. أحاول أن أتذكر التقويم لأعرف في أي يوم أنا، وكم مضى عليّ هنا، وكم يتبقى لي حتى أغادر إلى الهواء الطلق.. ثم أنام.. ثم أصحو من النوم.. أصطف مع الآخرين في طابور الطعام حتى أحصل على وجبتي.. أثرثر مع الآخرين أثناء تناول الطعام.. أثرثر مع الآخرين بعد الانتهاء من الطعام.. ثم أنام.. ثم أصحو من النوم.. أتعارك مع سجين آخر على أتفه الأسباب، ثم أفض عراكًا بين آخرين نشب لأتفه الأسباب.. ثم أنام.. ثم أصحو من النوم.. أثرثر مع الآخرين.. أستمع إلى حكايا أيامنا العشرة السرمدية، وأتظاهر بالتصديق! ثم أنام.. ثم أصحو من النوم.. ثم أنتظر زيارة من أحدهم لا تجيء!!

لا زيارات تأتيني على الإطلاق!

لقد خسرت كل شيء: خسرت حياتي.. سمعتي.. حريتي.. عائلتي.. مستقبلي.. كل شيء.. كل شيء..

- "أنت على حق!"

لا أستطيع الكذب أكثر من هذا.. لا أستطيع!

- "أنا فعلًا مذنب! أردت أن أطلع السلم كله بوثبة واحدة.. عرفت أنه في بلادنا يفوز الأثرياء بكل شيء، حتى المحبوبة، والفقير عليه أن يتقبل أي شيء يناله، ويتقبل حرمانه أي شيء لا يملكه.. لقد خسرت حبيبتي، ورأيت زملائي يصلون إلى أعلى الدرجات وأنا في الحضيض! أردت أن أعوض كل هذا بالممنوعات، فخسرت أكثر وأكثر!"

الكذب لم يغير شيئًا! لكن هل ستغير الحقيقة أي شيء؟

وهل حان وقت الرهان على الحقيقة؟

- "أردت أن أقتني تلك الجاكوار الفارهة، فلم أنل إلا القضبان وهذا العنبر المظلم!"

لماذا لا يرد؟ يبدو أنه قرر أخيرًا أن يستمع فقط، دون أن يتكلم، لقد حصل على ما يريد.. أردت الحقيقة يا صديقي؟ ها قد حصلت عليها! أنا مذنب فعلًا، وكنت أكذب وأقول لك -وللآخرين- إني بريء!

الآن ماذا بعد الحقيقة؟ أعتقد أني سأنتظر مثلك.. أنتظر أن أموت خلال ساعات، أو أيام، أو أشهر! أو أن يحالفني الحظ وأجد فرصة للهروب كـ (إدموند دانتي) الذي لا أعرف عنه شيئًا.. أو ربما أمرض وأحصل على إفراج صحي.

ولكن ماذا أفعل حتى يحدث أي من هذا؟

- "(منصور) يا صديقي!"

- "نعم؟"

- "متى يحين دوري في الديكاميرون؟!"

***

الفـصل الـخـامـس

- نَـــزْوة -

على لســـان د. (شريف)

(١)

كأنه فيلم كرتوني يعاد كل صباح، أفيق على أصوات المعركة!

الساعة السابعة وأربعون دقيقة، هذا مبكر نوعًا ما، بعد ثلث ساعة من الآن يبدأ رنين المنبه.. صراخ (نجوى) زوجتي مزعج للغاية لكني اعتدته، (ميار) ابنتي ليست سهلة كذلك، لديها قدرة عالية على الصراخ هي الأخرى، الأصوات الصاخبة التي تصلني غير كافية لتحديد أسباب المعركة هذه المرة، أو ربما أنا لا أصغي جيدًا..

في الحقيقة لا أريد أن أعرف، ما جدوى معرفة أسباب شجار بين أم وابنتها ذات العشر سنوات؟ أعرف فقط أن زوجتي ستأتيني أولًا، وتقول لي العبارة المعتادة:-

- "قم تصرف مع ابنتك!"

وأنا سأمتص غضبها بعبارات تحمل الوعد بأني سأجد حلًا، لكني لا أكلف نفسي عناء الوفاء به، لأني أصلًا لا أعرف حلًا لامرأة تنظر لابنتها باعتبارها "ضرة" أو "غريمة" لها، وطفلة تنظر لأمها -التي أنجبتها- كأنها زوجة أب متسلطة!!

على كل حال هذا الصراع لا يعنيني كثيرًا، لأني سأنهض من الفراش إلى الحمام، ثم إلى مائدة الإفطار، سأحاول أن أقول بعض العبارات لتهدئة الأجواء، ثم ألبس ثياب الخروج، وأنطلق إلى المصحة، وحين أعود بعد الساعة الثالثة عصرًا سأجد طفلتي وحيدة، تلعب بدمية ما، أو تشاهد التليفزيون وترفع صوته لأعلى مدى، ولن أجد ضرتها -

أعني أمها- لأنها لا تعود من عملها قبل الثالثة، أكون أنا نائمًا، وحين أنهض في الساعة الخامسة تكون هي نائمة، وأنا أغادر إلى عيادتي، وحين أعود من العيادة قرب منتصف الليل تكون الطفلة نائمة، ونوم أحد الخصمين يضع حدًا مؤقتًا للمعركة المستعرة منذ أن تعلمت الطفلة الكلام.

أستطيع بخبرتي الطويلة في عالم النفس البشرية تحديد سبب الخصومة المستمرة، لكن لا أستطيع أن أحدد أي الخصمين أكثر عداء للآخر! أعرف أن زوجتي كانت أكثر لهفة على الإنجاب، وأعرف أنها فرحت فرحة غامرة بإنجاب أنثى، كل النساء يفضلن إنجاب الإناث عن الذكور، طبعًا لأن الأنثى -يفترض- أنها أكثر طاعة، وأحرص على مساعدة أمها من الذكر، وأجزم بأن زوجتي كفرت بتلك القاعدة الآن!

وأعرف أيضًا أن طفلتي (ميار) كانت وديعة تمامًا حتى بلوغها مرحلة رياض الأطفال، حيث تحولت في زمن قياسي إلى قطة متنمرة، لكن هذا لا يعني أنها هي المشعلة تلك المعركة المتواصلة منذ سنوات، ولا أستريح منها إلا فترة الدراسة..

إنها واحدة من تلك المعارك التي يصعب معرفة من الذي أشعلها ابتداءً، وبالتالي لا أحد يعرف كيف تنطفئ! وإن كنت أعرف أن زوجتي (نجوى) -الحريصة أشد الحرص على جمالها ومظهرها الخارجي- لا تستطيع تقبل فكرة أنها صارت أمًا لفتاة تكبر كل يوم، وتريد أن تحتفظ بنضارتها وصباها أطول وقت ممكن، كما أعرف أن (ميار) ابنتي لا

تحب أن يتسلط عليها أحد، ولديها شخصية متمردة ظهرت في طور مبكر جدًا.

على كل حال ثمة إيجابية ما في اعتيادي تلك المعركة: أنني لم أعد أنزعج منها، وأن الطرفين اعتادا سلبيتي كذلك، ولا يتوقعان مني فعل شيء من شأنه إخمادها، وبالتالي اعتدت أن أسمع توبيخ زوجتي لي بوصفي "أبًا ضعيفًا" لا أملك أي قوة لإخافة طفلة "مفعوصة"، وطبعًا لن أرد على هذا التوبيخ بتقرير حقيقة أنها هي من يشكو، وهي من يوشك على الجنون من تلك الطفلة "المفعوصة" لا أنا.. وبالتالي لست أنا الطرف الضعيف ها هنا.

لا داعي لأي رد، لأنه سيدخلني طرفًا في هذا الصراع الذي لا يجلب سوى الصداع والإزعاج المستمر.

أتأمل برهة زوجتي (نجوى) وهي غاضبة ثائرة، ما زالت تحتفظ بالكثير من جمالها وسحرها، لكن فقدت رقتها ونعومتها، أتذكر لقائي الأول بها في عيادتي القديمة.

- "صداع مستمر، أرق، كوابيس، دوار، لست على ما يرام يا دكتور، رغم أن الطبيب المعالج أكد لي أني لا أعاني من شيء! أرجوك ساعدني!"

وتنخرط في البكاء الرقيق، بكاء حقيقي أم مصطنع لا يهم، في النساء يسهل التفرقة بين الضحك الحقيقي والمصطنع، لكن يصعب ذلك في البكاء، إنهن يُجدن إرسال الدموع، وتقمص الكآبة والشجن،

لكني طبيب نفسي، وأزعم أني بارع في مهنتي، وأمارسها عن حب، ويفترض أني أملك القدرة على تمييز البكاء الحقيقي من أول وهلة!

عرفت ما تعانيه أيضًا من أول وهلة، نفس ما يعانيه الأثرياء في كل زمان ومكان: الفراغ والوحدة.. هذا كل شيء! العلاج بسيط، أحد العقاقير المهدئة، والتي تساعد على النوم، النصيحة التقليدية بتغيير الجو، والاندماج مع صديقاتها أكثر، كل ذلك لن ينهي المشكلة نهائيًا، لكنه سيصلح الأمور فترة لا بأس بها.

لن أتعجل في تقديم الدواء لها، التمهل أفضل، سيطيل الجلسات، وبالتالي سأستفيد بالمال الذي تدفعه في كل جلسة، كما سيجعلني أحظى بثقتها، وثقة رفيقاتها من نفس طبقتها، العلاج السريع يجعل المريض أقل ثقة في طبيبه، لست معتادًا على زبائن الطبقة الثرية، ولا يأتونني إلا نادرًا، والآن أمامي فرصة للتعرف على تلك الطبقة أكثر، وربما الحصول على ما هو أكبر!

والد (نجوى) يدير أحد البنوك الاستثمارية، ووالدتها تعمل بوظيفة كبيرة بوزارة المالية، تعيش في الزمالك، لديها سيارتها الخاصة بها، أتمت تعليمها الجامعي، فتاة ثرية فارغة.. إنها فرصة لا تعوض، لو استطعت الحصول عليها كزوجة!

أنا طبيب فقير، من حي بولاق، والدي كان موظفًا حكوميًا بسيطًا، وأحيل للتقاعد، والدتي –رحمها الله– ربة بيت مصرية من الطراز التقليدي، لدي أخ وأختان، كلهم تزوجوا، أعمل بمصحة حكومية، بالكاد

استطعت افتتاح عيادة لي في حي متوسط الرقي، ما زلت أسدد ديوني منها، أتقدم في مهنتي ولكن ببطء، وأحتاج إلى حظ كبير للانطلاق لأعلى، و(نجوى) هي خير فرصة لذلك!

الجلسات تتوالى، عرفت كل دقائق حياتها، إنها تافهة جدًا، تافهة كأي فتاة ثرية أخرى، لكنها ساذجة، أو ربما بلهاء، الفرصة سانحة.

- "لنتكلم بوضوح.. هناك نوعان من الدواء المناسب لحالتك، أحدهما عضوي تقليدي، سيحل الأمر مؤقتًا، إلى فترة ما، لكن ليس نهائيًا، لأن الحالة تلك ستعاود الانقضاض عليكِ ثانية.."

بدا على وجهها الانزعاج، هذا جيد جدًا.

- "الحل الثاني غير تقليدي، وقد يفاجئك، لكن صدقيني سيحسم الأمر نهائيًا".

بالطبع اختارت الحل الثاني من قبل أن تعرفه، لكنها تساءلت: ما هو؟ ابتسمت ابتسامة حاولت أن أجعلها رائعة قدر المستطاع، وأجبت:-

- "الحصول على عمل و...... الزواج!"

رغم أن الحل اشتمل على عنصرين، إلا أنها -كما توقعت- لم تلفت إلا إلى العنصر الثاني، رددت في دهشة ساذجة:-

- "الزواج!"

نعم.. الزواج.. الارتباط بشخص آخر يملأ -كما يقولون- حياتك، ويخلصك من الوحدة باهتمامه المتواصل بك، ويخلصك من الفراغ

باهتمامك أنت به.. شخص يصلح لأن يكون زوجًا.. وحبيبًا!
كانت ابتسامتي تتسع وأنا أتحدث، لما ألاحظه على وجهها من تأثر، سأذكرها بالعنصر الأول الذي تجاهلته، رغم يقيني بأنها لن تهتم به كثيرًا.
- "العمل أيضًا قد يحقق ذلك، لأنه سيشغل وقتك واهتمامك وتفكيرك إلى حد بعيد".
بالنسبة لفتاة مثل (نجوى) ليس الحصول على وظيفة بالأمر الشاق، يكفي أن تخبر أحد والديها برغبتها في العمل، ولن يمر أسبوع –على الأكثر– حتى تكون قد حصلت عليه! وهذا ما قد كان.. وظيفة في بنك، ليس غريبًا أن تعمل خريجة (آداب) بوظيفة في بنك استثماري يديره والدها، فنحن في مصر! لكنها لم تتخل عن التفكير في العنصر الثاني، وعرفت أني أنا الموعود من أول اتصال تليفوني حصلت عليه منها، وهي تعيد التحقق من كلامي عن الزواج!
أنا فقير، لكني وسيم إلى حد ما، لبق، والأهم أني أجيد التأثير في الآخرين، والحصول على ثقتهم وإعجابهم، دراستي لعلم النفس لم تضع هباءً ولله الحمد.
ولأنها كانت ترغب في الزواج مني لم يحل شيء دون حدوث ذلك، الآباء الأثرياء أضعف في السيطرة على أولادهم من الآباء الفقراء، لأن الثراء والتدليل صنوان لا يفترقان، الفقر لا يسمح بهذا التدليل ولا ذاك النوع من الأبوة والأمومة! كما أن مهنة الطبيب تحظى باحترام كبير

معنويًا، بالرغم من انحطاطها ماديًا!

وهكذا انتقلت من بولاق إلى الزمالك، وصرت أملك عيادة أكثر فخامة بالمهندسين، تسعون بالمائة من زبائنها أثرياء، أكثر ما يعانونه: الفراغ والوحدة!

***

(٢)

هذه الحالة معقدة جدًا.. بل مرعبة!

على الرغم من أني في مهنتي هذه عاينت الكثير جدًا من الحالات الغريبة والشاذة، من أول العجوز الذي تأتيه عروس البحر في اليقظة والمنام، إلى الطفلة التي تخشى أن تلتهمها القطط في الفراش! لكني للمرة الأولى التي أصادف فيها حالة بمثل هذا التعقيد، وهذه الصعوبة!

إنني إزاء جدار دفاعي محكم، اختلقه العقل الباطن معتمدًا على العديد من الحيل الدفاعية اللاشعورية، مما يجعلني أواجه مشكلة عويصة في معرفة جذور هذا الجدار الدفاعي المحكم، وثانيًا: في معرفة طرق هدم ذلك الجدار دون وقوع أضرار على المريض!

والمشكلة الأصعب أنه لا يريد التحدث، بل إنه يسعى بقوة تجاه تلقي العقوبة، والعقوبة التي يريدها هي الموت، لا شيء آخر! لماذا لا ينتحر وينهي المشكلة؟ لماذا يلجأ إلى هذا التعقيد للوصول إلى الموت؟

الإجابة الوحيدة التي توصلت إليها: أنه لا يريد أن يذهب موته هباء، مثلما ذهبت حياته هباء، والانتحار لن يحقق له ما يصبو إليه،

سيدفن في صمت، ولن يكترث له أحد، هو يريد أن يصل صوته إلى الجميع قبل أن يموت، إلا أنه يصطدم بالشعور بالعجز.. هذه الإجابة تبدو منطقية جدًا.

الصرخة.. لوحة (إدفارد مونك)، يزعم أنه بدأ يراها في منامه من قبل أن يشاهدها في الحقيقة، هذا مستحيل علميًا، لا شك أنه رآها في مكان ما، وسقطت من عقله الواعي، واحتفظ بها عقله الباطن، الصرخة بداخله، مكبوتة بالداخل، يريد أن يصدع بها ولا يستطيع، قيود العجز تحول بينه وبين ذلك، لعله الخوف بجانب العجز!

- "من أين حصلت على المتفجرات؟"

أعرف أن السؤال سخيف جدًا، لكنها محاولة لاختبار صلابة ذلك الجدار الدفاعي اللاشعوري، إنه محكم حقًا، محكم جدًا.

إنه يعاملني بعدوانية مبررة في اعتقادي، فأنا أمثل خطرًا على هذا الجدار الدفاعي، هو يعرف أني أسعى جاهدًا لهدمه، عقله الباطن لن يسمح بهذا، لهذا يلزم الصمت أغلب الوقت، ويحرص على إخافتي أثناء حديثه إذا تحدث، وفي نفس الوقت يسعى إلى الفرار جاهدًا من محاولاتي!

- "لماذا الهرم بالذات؟"

للهرم دلالات كثيرة، إنه رمز للحضارة، للخلود، للبراعة، للقدم، للـ......!

- "للزيف!"

كان قوله هذا صادمًا لي، أولًا: لأني لم أكن أتوقع إجابة منه، وثانيًا: لأنها إجابة لم أتوقعها بالمرة.. أي زيف؟

- "للقهر.. للعبودية.."

تتواصل إجاباته الصادمة!

لا أعرف حقيقة ما الذي يعنيه، لقد بحثت في الإنترنت عن لوحة (الصرخة) ووجدت ما قاله صحيحًا، لكني لا أعرف كيف أبحث عن دلالات الهرم كما يراها هو! الإيجابي في الموضوع أنه يريد أن يتحدث هذه المرة.. إنه يريد أن يتحدث، هذا الموضوع بالذات يستهويه الحديث فيه..

- "لا أعرف هل هو (خوفو) الذي أمر ببناء هذا الهرم أم ملك آخر، لا أثق بشيء من التاريخ المكتوب، التاريخ الحقيقي مات مع أبطاله وشخوصه، لم يبق منه سوى أكاذيب الذين لم يشهدوه، ومع ذلك أقدموا على تدوينه.. لكني أعرف أن هذا البناء رمز للقهر والعبودية، سعى لبنائه ملك نرجسي مخبول، ليحقق الخلود لنفسه، وسخر شعبه كله للحصول عليه، يقولون: اسمه (خوفو)، أتمنى ألا يكون (خوفو) فعلًا.. أتمنى أن يكون آخر.. فأفضل جزاء يحصل عليه أن يذهب اسمه، ويضيع عليه الخلود الذي قضى على المئات أو الآلاف من أبناء شعبه في سبيل الحصول عليه!"

نظرية جديدة على مسامعي، أو لنقل نظرة غريبة وشاذة لواقعة تاريخية مسلّمة، نشأنا منذ الطفولة على الإيمان بها، لكن تلك النظرة

تـدل علـى أشـياء كثيـرة: الارتيـاب.. الـرفض.. الإحبـاط.. الهـروب.. الكراهية.. الغضب!

الأمر أعقد بكثير مما كنت أظن.. لكنه تكلم.. هذا جيد!

- "هل فكرت في الانتحار يومًا؟"
- "لا.. الانتحار ضعف.. جبن.."
- "ضعف أم جبن؟"
- "كلاهما.. وكف عن الحذلقة!"

حسن.. هذا يتفق مع تصوري للحالـة، كيف وصل شاب كهذا إلى هذه الدرجة من الإحباط والغضب؟ إنه في الرابعة والعشرين من عمره، يفترض أنه تخطى مرحلة المراهقة الأولية، وتخلص من الخيال المفرط، وبدأ يجنح نحو الواقعية، وإن كان لا يصل إليها إلا بعد أعوام، كما يكون قد تخلص من سذاجة النظرة للحياة، وللأشخاص من حوله، وبدأ يكتسب شيئًا من العمق، وإن كان لم يتخل عن الانبهار بعد، لكنه يدخل في صراع داخلي بين المادية والشعور، أو بين الاستجابة للعقل أو القلب، وتكون لديه حالة من العنفوان تجعله يريد أن يحصل على الأشياء بسرعة، ولهذا لا تكون فترة منتجة نظرًا للتسرع وعدم الصبر والقلق المستمر، وتفكيره يكون مسلطًا على المستقبل القريب فقط، ولا يكترث بالمستقبل البعيد!

لكنني أمام شاب فقد شغفه بالحياة نهائيًا، ويسعى لإنهائها، ولم يعد لديه طموح لأي شيء، سوى وصول صرخته للآفاق البعيدة.. حسنٌ..

ربما كان هذا هو المدخل، سأساومه على هذا: يحكي لي كل شيء، مقابل أن أوصل صوته للآفاق.

- "لماذا قتلت تلك الفتاة المدعوة (منى)؟"

لكن الشك يقف عائقًا أمام تلك المساومة، إنه لا يثق بي، وما زال عقله الباطن يعتبرني خطرًا، الأمر يحتاج إلى مزيد من المثابرة.

- "الخيانة.. أليس كذلك؟ عدم إجابتك تجعلني أفترض صحة تخميني ورؤيتي.. كنت تحبها، ولعلها هي أيضًا كانت تحبك، لكنها رغم ذلك تخلت عنك، هناك آخر انتزعها منك، أو لعلها هي تخلت عنك من أجله.."

- "أنت لا تعرف شيئًا"

- "أخبرني أنت.."

- "لا تتظاهر بالذكاء، هناك أشياء بديهية يدركها الجميع دون نبوغ"

إذن تخميني صحيح! لا بأس سأتحمل وقاحتك، لكني توصلت لطريقة أخرى، لن أكتفي بك، سأحصل على معلوماتي منها هي حتى تتكلم أنت! أعترف بأن هذه الحالة تستوهيني بشدة، وأعتبرها نوعًا من التحدي، على الأقل ستخرجني من الروتينية التي سقطت في شباكها!

***

(٣)

- "لنكن صرحاء مع بعضنا البعض، ليس كل الأحلام ذات معنى، وليس كل الأطباء النفسيين يكترثون للأحلام!"

مقولة صحيحة وصادقة، لكني رغم ذلك كذبت، فقد استوعبت حلمه من أول وهلة، مثلما استوعبت حلمي..

أنا أيضًا أحلم، والحلم يتكرر، فجأة أجد نفسي في مكان ما، وكل شيء حولي جامد، ثابت، لا يتحرك، ولا يهتز، حتى ذرات الغبار في الهواء ثابتة، كذا الطيور، والناس، والسيارات، كل الأشياء ثابتة وجامدة كأنها تماثيل من شمع.. وأفيق مذعورًا رغم أنه لا يوجد في الحلم ما يخيف!

أعرف أن الحياة توقفت بي منذ زمن، منذ أن حصلت على (نجوى) وانتقلت إلى طبقتها، لقد حصلت على ما أريد وتوقفت، أصبح كل شيء روتينيًا مُملًا، اليوم يتكرر باطراد دون تغيير، ودون تحديث، حتى الحالات التي ترد عليّ بالمصحة أو العيادة متشابهة كأنها نسخ مكررة، قرأت كتبًا كثيرة، ولم أعد راغبًا في قراءة المزيد، لأن داخلي إحساس أنه لن يكون هناك جديد، فقدت حماسي لكل شيء، ورغبتي في أي شيء.. حياتي جامدة، وتحتاج لتحريك.. أو تغيير.. جربت الإجازة.. السفر، لكني سئمت حتى هذه الحلول التقليدية.

فجأة توصلت إلى هذا الحل، ولا أدري ما الذي أوحى لي به!

الحل: (نزوة)!! مغامرة عاطفية مؤقتة أخوضها، لتكن خيانة، ليكن مجونًا وخلاعة، ليكن انحرافًا.. ليكن أي شيء! لا يهم.. لكني أيقنت أنه الحل الوحيد للخلاص من الحياة الشمعية التي سقطت فيها.. أحتاج لأن أخطئ، ولأن أخاف من اكتشاف الآخرين هذا الخطأ، أحتاج

للموارية.. للكذب.. للمرواغة، للالتفاف، أحتاج للإحساس بالخوف.. بالقلق.. بالتوتر، نعم.. أنا بحاجة لخيانتك يا (نجوى)، ربما لفترة مؤقتة، أو على الدوام.. لا أعرف بالضبط، لا يعنيني تحديد الزمن الآن، فقط يعنيني أن أخوض التجربة!

***

(٤)

إنه أنت يا صغيرتي.. أنت من أوحى لي بهذه الفكرة.

قبل أن أجدك لم أكن أتخيل أنك بهذا الجمال، ولا هذا السحر، (نجوى) جميلة أيضًا لكن جمالها قشري، كالرسوم والألوان التي تنقش على جدار ثم يتكفل الزمان بجعلها تبهت حتى تنطمس، لكن جمالك أنتِ أكثر ثباتًا وعمقًا، جمال حي ينطوي على مفردات أكثر من ملامح الوجه، وتشكيل الجسد، إنه سحر الروح.

قوية أنتِ وساحرة، كبطلات الأساطير الإغريقية القديمة، كأنك (جالاتيا) التي هام بها (بيجالمون).

كنت أحلم بنزوة، لكن خيالي لم يصل إلى هذا الحد من الروعة والسحر!

***

(٥)

كنت أعرف ما يعانيه (رشيد غالي) من قبل أن ألقاه: إنها (متلازمة ديوجين)!!

منذ حوالي عام تقريبًا.. جاءني ابنه الأصغر (صلاح) مستنجدًا، وقال لي:-

- "أبي لا يغادر حجرته مطلقًا، ولا يحادث أحدًا على الإطلاق، ولا يستحم، ولا يطلب الطعام إلا للكلبين اللذين يقتنيهما، ونراه أحيانًا يهذي، ويكلم نفسه.. أرجوك ساعدنا يا دكتور"

- "منذ متى وهو على هذه الحال؟"

أجاب:-

- "لا أدري.. لكن أعتقد منذ عدة أشهر"

- "كم عمره؟"

- "خمسة وستون عامًا.. لكنه كان طبيعيًا حتى عهد قريب.. فجأة انعزل عن الجميع، سوى الكلاب"

حسنٌ.. (رشيد غالي)، أحد الأثرياء، أعرف ابنه الأكبر الذي يدير شركات والده، التقيت به ذات مرة في احتفال خاص، لم ألتق (رشيد غالي) نفسه أبدًا، لكني أعرف أنه رجل ناضج سوي، ورجل أعمال ناجح، كوّن ثروة من لا شيء، عصامي كما يقولون، ما الذي أدى إلى إصابته بمتلازمة ديوجين؟

(ديوجين) فيلسوف إغريقي، اعتاد أن يعيش داخل برميل نبيذ، واشتُهر باعتناقه ودعوته لمبادئ خاصة بالمذهبين الفلسفيين: العدمية والحيوانية، يحكون أن الإسكندر الأكبر تجشم لقاءه ليتعلم منه، وعندما وصل إليه وجده قابعًا داخل برميل النبيذ في نهار مشمس، وحاول

الإسكندر أن يفتح معه حوارًا، لكن لم يفلح، وعرض عليه خدماته، فقال (ديوجين) له:-

- "أريد منك خدمة واحدة فقط"

فتهلل وجه الإسكندر، وقال:-

- "تحت أمرك.."

فقال له (ديوجين):-

- "تنحَّ جانبًا لأنك تحجب عني الشمس!"

أصبحت هذه المتلازمة تسمى باسمه لأنها ترتبط بالإهمال الحاد للذات، والميل للعزلة بشكل متطرّف، بما يصاحب ذلك من رغبة عارمة في التملك، وغالبًا ما تكون لامتلاك الحيوانات، كبار السن هم الأكثر عرضة للإصابة بها، وتكون عادةً مصحوبة بانهيار جسدي، أو عصبي، أو عقلي، مرتبط بالخرف.

أعتقد أنه طبيعي في حالة (رشيد غالي) بحكم سنه، والمعاناة التي عاناها في حياته في سبيل جمع المال! لكني عندما التقيت به عرفت أن هذا التشخيص ليس دقيقًا بما يكفي.. جسده الضئيل، شعره الأشعث الأشيب، نظراته النفاذة، صوته الجامد، شيء ما ليس على ما يرام في كل هذا.

- "إذن هم لم يكتفوا بأني تنازلت لهم عن أموالي، يريدون وصمي بالجنون كذلك"

قلت محاولًا تلطيف الموقف:-

- "بل هم جاءوا بي من فرط اهتمامهم بك، ورغبتهم في أن تكون بينهم كما كنت سابقًا"

ابتسم ابتسامة غامضة، وأشاح بيده، أخذ يداعب الكلبين بطريقة مضحكة.. منظر الكلبين مخيف، إنهما ضخمان جدًا، ومنظرهما شرس للغاية، المشكلة أني أعرف مدى ارتباطه بهما، لذا لا أستطيع إخراجهما، أشعر بالخوف منهما، رغم أنهما لم يصدر منهما سلوك عدائي تجاهي حتى هذه اللحظة، ومع ذلك أتوقع الهجوم في أية لحظة.. ترى هل يستطيع الواقفون خلف الباب إنقاذي في الوقت المناسب؟

- "دكتور (شريف)..لا تخف.. الكلبان ودودان جدًا، لكني لا أنصحك بأن تدع جسدك يفرز الأدرينالين، أنت رجل علم، وتعرف أن الأدرينالين يثير الكلاب، حاول أن تتماسك إذن"

كأنه يقرأ أفكاري، طريقته في الكلام مزعجة ومقلقة جدًا، لكن أنا بالفعل بحاجة إلى أن أتماسك حتى أقوم بعملي هنا!

سألني فجأة:-

- "هل أنت ثري يا دكتور (شريف)؟"

سؤال غريب، وصعب في الوقت ذاته، لا أدري حقيقة، أنا أملك عيادة، وسيارة، وبعض الأموال في البنك، زوجتي تملك أكثر مني، وتضع مالها تحت تصرفي، لكني مع ذلك لا أجزم بأني ثري.. كيف أجيب عن ذلك؟

- "لم أصبح مليونيرًا بعد!"

ضحك بشكل مفاجئ وغريب على إجابتي، يبدو أنها راقت له، هذا خطأ، يجب أن أكون أنا المسيطر هنا على الحوار لا هو!

-"أيهما أفضل في رأيك يا دكتور: أن تكون فقيرًا أم ثريًا؟"

سؤال ساذج، بالتأكيد لو سُئلته ألف مرة لكانت إجابتي واحدة، الفقر أم الثراء أفضل؟ لقد جربت الحالين، وليس عندي أدنى شك في أن الثراء أفضل، وأرفض أي حذلقة فلسفية، وحديث فارغ عن الصحة وراحة البال وما شابه ذلك، فالمرض يجتاح الفقراء أكثر، وليس بوسع أكثرهم الحصول على الدواء، كما لا يوجد فقير مرتاح البال أبدًا، وهو يلهث وراء لقمة العيش وتوفير متطلبات أبنائه!

- "لو سمحت دعنا من هذه الأسئلة، أو لنرجئها لوقت آخر، دعني أولًا أطمئن على صحتك"

لكنه أشاح بيده قائلًا:-

- "صحتي على ما يرام يا دكتور.. أيًا كان ما تفكر فيه من العقد النفسية أنا لست مريضًا بأي منها، أنا فارقت العالم بمحض إرادتي"

قلت محاولًا استيعاب الموقف:-

- "هذا جيد.. وهذا فعلًا ما أرجوه، لكن أعطني الفرصة لأطمئن أكثر"

بدا كأنه لم يسمعني، وسألني:-

- "هل تحب زوجتك يا دكتور؟ بأمانة.."

وأشار نحو شيء ما في جسدي، مستطردًا:-

- "أرى دبلة في يدك اليسرى، إذن أنت متزوج، هل تزوجتها عن حب؟ هل ما زلت تحبها؟"

هذا كله خطأ، أنا من يجب أن يسأل لا هو، هذا الرجل غريب الأطوار، يبدو لي الأمر أعقد من متلازمة (ديوجين)!

- "من فضلك يا سيدي، أنا ......"

قاطعني قائلًا:-

- "تشعر بالحرج من الجواب، لا تريد لأحد أن يقتحم حياتك الخاصة.. مد إليّ يدك لو سمحت!"

ماذا؟! مطلب غريب! لكنه مد يده بالفعل وينتظر أن أمد له يدي بالمقابل، أنا خائف جدًا، يبدو لي أن الأدرينالين سيعمل، الكلاب منظرها شرس للغاية.

قال مشجعًا:-

- "تماسك يا دكتور، ولا تخف.. لن أؤذيك.. صدقني"

مددت يدي على وجل، أمسك بها كمن يقرأ الكف، راح يتأملها لبرهة، ثم تركها.. عاد يداعب الكلاب بطريقته المضحكة، ثم التفت إليّ قائلًا:-

- "أنا بدأت من الصفر يا دكتور.. أو ربما من تحت الصفر، كثير من الناس يعتقدون أن العصاميين الذين يبدءون من الصفر حتى يحققوا الثراء ما هم إلا لصوص، في الواقع هم محقون في ذلك إلى حد

كبير، لقد جمعت أموالي بطرق كثيرة، بعضها مشروع، وبعضها ليس كذلك، لكني استطعت أن أحصل على كل شيء تقريبًا أصبو إليه، ما عدا شيئًا واحدًا لم أحصل عليه قط.. الحب!"

أشاح عني قائلًا:-

- "سأعطيك نصيحة يا دكتور، وأعرف أنك لن تقبلها بسهولة لأنك واقع تحت تأثير نشوة المال حاليًا: الحصول على امرأة تحبها وتحبك، خير لك من تحصيل ثروات الدنيا.. صدقني! أنت الآن في الأربعين من عمرك فيما أعتقد، وحسبما يبدو لي من ملامحك، هذا يعني أن بوصلة العمر بدأت تنحرف تجاه الشيخوخة، لكن ما زال أمامك متسع من الوقت لتتدارك الأمر.. ابحث عن تلك التي تقضي معها الساعات دون أن تمل منها، وتخلص من أي شيء آخر يشغلك عنها"

عاد ينظر إليّ مرة ثانية، سدد عينيه النفاذتين مباشرة تجاه عيني، استطرد:-

- "لقد تحولنا إلى آلات، بل هم من حولونا إلى هذا.."

من هم؟ عمن يتحدث؟ هل هذه بداية التخريف؟

- "جعلونا نلهث وراء لقمة العيش، ونكفر بكل شيء: بالأخلاق، بالمُثل، بالقيم، بالمبادئ، في سبيل الوصول إلى العيش الرغد، جعلونا نبحث عن أي شيء يصلح كمخدر كي نتخفف من الشعور بالألم والمعاناة، حتى الدين قدموه لنا كمخدرات تغيبنا عن الواقع، محوا آدميتنا وحولونا إلى قطعان تسير بلا هدى، بحثًا عن العشب والماء، تجردنا

من آدميتنا وصرنا بهائم، وفي أحسن الأحوال آلات حاسبة مبرمجة، تحصي أرقامًا بلا شعور"

أشار بسبابته مواصلًا:-

- "الحب هو السبيل الوحيد لاستعادة آدميتنا.. فابحث عنه إن كنت لا تملكه.. وأحسبك فعلًا لا تملكه"

وجدت نفسي أقف كالطفل الأبله أمام هذا الرجل الغامض، هل هو يهذي؟! هل هناك هذيان بهذا العمق والاتساق؟!

يفترض أني جئت إلى هنا كي أعالجه، ولكن أعالجه من أي شيء بالضبط؟ متلازمة (ديوجين) عادة ترتبط بالخرف، فهل ما يقوله لي الآن يعتبر تخريفًا؟

قال وهو يداعب الكلاب:-

- "انصرف الآن أيها الطبيب، وحين تتمالك نفسك تعال لزيارتي، كصديق لا كطبيب، أعتقد أن هذا قد يطمئنك إلى حد ما، ها أنا على استعداد لاستقبال أصدقاء من خارج نطاق العائلة.. أخبر أبنائي أني تنازلت لهم عن كل شيء، سوى طعامي وطعام كلابي، فمن أبسط حقوقي أن يتركوني وشأني، إن كانوا حقًا قلقين عليّ فليطمئنوا.. أنا على ما يرام"

ابتسم بخبث وأردف:-

- "يبدو لي أنك أنت الوحيد الذي لست على ما يرام هنا يا دكتور.. اذهب الآن، وسأنتظرك لاحقًا.."

مضيت ورأسي يضج بالتساؤلات والرؤى، هل ما حدث حقيقي أم أنني أتوهم ما حدث؟ وبدا لي لوهلة أنني أنا الذي بحاجة لاستشارة طبيب نفسي!

***

(٦)

إنها تسحرني.. تبهرني.. كل ما فيها يجذبني..

شكلها.. سمتها.. حديثها.. نظراتها.. ابتساماتها.. ضحكاتها.. كل ما فيها يسحرني!

هذه هي الموعودة.. فيها كل المواصفات التي أنشدها وأكثر.. هل قلت في المواصفات: أنها تعقص شعرها الغجري من الخلف، وفي خديها غمازتان؟!

لا أعرف إن كنت أستطيع الحصول عليها أم لا؟ لكني أعرف يقينًا أنها تستحق المحاولة!

***

(٧)

الأميرة الساحرة (جالاتيا).. هبة الإلهة (فينوس) لـ (بيجالمون)!

لست من هواة الأساطير القديمة، لكني أحتاج إلى قراءتها لتعرف بعض العقد النفسية المرتبطة بتلك الأساطير، مثل عقدة (أوديب) أو متلازمة (ديوجين)، لكن أسطورة (جالاتيا) راقتني جدًا.. من قبل أن أعرفها حقيقة.

اسمها (منى)، فتاة فقيرة وبائسة، لكنها جميلة بل ساحرة الجمال، كما أنها مرحة تزرع البهجة في نفس من يراها ويتعامل معها، الأجمل أنها قوية جدًا، ذات شخصية مهيمنة قوية التأثير، أعترف بأن مشاعري تحركت تجاهها بعنف غير مسبوق! هل أشكر ذلك الفتى على أنه هداني إليها؟

كانت تريد أن تعرف..

- "لماذا يتوهم أنه قتلني؟ لقد ذهب إلى قسم الشرطة واعترف على نفسه بأنه خنقني حتى الموت!"

- "وما زال يعتقد ذلك، مثلما يعتقد أنه قام بتفجير الهرم الأكبر!"

- "لكن لماذا؟ لم يكن بيننا علاقة من أي نوع، بل إني لا أذكر أننا تبادلنا حديثًا أكثر من التحية، لماذا يفكر في قتلي؟ أو يتوهم أنه قتلني بالفعل؟"

حاولت أن أعثر على الألفاظ المناسبة الخالية من التعقيد، كي أشرح الموقف، أجد صعوبة في ذلك حقيقة:-

- "يمكنني أن أصوغ الأمر كذلك: إنه ينتقم من حبيبة له تخلت عنه، هذه الحبيبة بشكل ما تشبهك، أو لنقل إنه يراكِ فيها، هو كان يبحث عن الانتقام منها هي لكنه لم يعثر عليها، وكان هذا يقلقه ويزعجه، فالرغبة في الانتقام تستعر بداخله، وكان بحاجة ماسة لإشباعها أو إطفائها، عندما رآكِ أسقط عقله الباطن هويتها عليك أنتِ، إنه شيء قريب مما نسميه في علم النفس (توهّم كابغراس)، ولحسن حظك أنه

عاجز عن الانتقام منها فعليًا، فتوهم ذلك في عقله الباطن، لكي يحصل على الإشباع!"

لا أعرف هل كنت موفقًا أم لا، لكن هي ذكية أعتقد، وستعي ما أقول.

- "وماذا عن الهرم؟"

- "مممم.. لا أستطيع أن أجزم بشيء محدد، في الطب النفسي قد لا تبدو الأمور واضحة ومحددة كما هو الحال في الطب العضوي، قد يكون للشيء الواحد أكثر من دلالة، هو قال إن الهرم رمز للقهر والاستعباد، لعل هناك تجربة سياسية سيئة تعرض لها يومًا ما، وجعلته يكفر بمفهوم الوطن، ويرتبط في ذهنه بدلالات سيئة، ويريد أن يهدم هذا الرمز، وما يشير إليه من قهر وسخرة واستعباد، ولأنه عاجز عن فعل ذلك حقيقة، اختلق هذا الوهم، وصدقه"

عادت تسأل من جديد:-

- "ولماذا ذهب لتسليم نفسه للشرطة؟"

- "ربما ليقنع نفسه أكثر بالوهم الذي اختلقه، أو ربما ليوصل صرخته إلى الآخرين، أو ربما لرغبته الحقيقية في إنهاء حياته، لا أستطيع أن أحدد شيئًا بالضبط!"

يبدو عليها التأثر بشكل غريب، عينان تلتمعان بدموع حبيسة، هل هو تعاطف أم ماذا؟

قلت في كياسة وعطف:-

- "لنقل إن هذا الشاب تعرض لصدمات وإحباطات على كافة المستويات، في محيط الأسرة، وعلى صعيد الصداقة، بالإضافة لتجربة عاطفية مدمرة، حتى في دراسته تعرض لصدمة كبرى، وحتمًا هناك تجارب أخرى قاسية لا نعرفها، هذا الإحباط مع الشعور بالعجز أوصله لتلك الحالة المعقدة والملتبسة!"

سالت دموعها فعليًا على خدها، يبدو أنها قاومت بشدة، وفشلت في النهاية، إنها دموع حقيقية لا شك.. صوتها نفسه بدا منخنقًا!

- "إحباطات؟! ومن منا لم يتعرض لإحباطات؟! إن الإحباطات والانكسارات والمخاوف أشباح تحيط بنا، تلاحقنا وتهددنا طوال الوقت، ولا نستطيع الخلاص منها"

قلت في نبرة مواسية:-

- "لكل إنسان منا أشباحه التي تحاصره وتطارده، لكن قدرتنا على التحمل والمواجهة متفاوتة.. هناك من يصمد، وهناك من يسقط.."

قالت في شرود:-

- "يسقط؟! .. أنا أخاف السقوط! لا أخاف شيئًا في حياتي سواه."

قلت مشجعًا:-

- "أعتقد أنك أقوى من السقوط!"

لا أدري لماذا أشعر بوجود (رشيد غالي) معنا في تلك اللحظة تحديدًا، كان يتحدث عن الحب، أنا لا أفكر في الحب، بل أسعى لنزوة عابرة، أو مستمرة.. هل تسمى النزوة المستمرة نزوة؟!

لكن ما الذي يمنعني من أن أخوض حبًا حقيقيًا؟ تنبهت فجأة إلى أني لم أجرب هذا الحب طيلة عمري، كأن قلبي مصفح! أنا الآن تجاوزت الأربعين، أو كما قال (رشيد غالي) انحرفت بوصلة عمري تجاه الشيخوخة، وأجلس مع (جالاتيا) الفاتنة.

نعم (نجوى) تحبني.. نعم ساعدتني ووهبتني الكثير ونقلتني إلى الطبقة التي تليق بطموحاتي، ارتباطي بغيرها خيانة لا شك.. لكني لا أدعي المثالية.

أنا أسعى من أجل إسعاد نفسي، والفرصة سانحة أمامي.. ومع ذلك أشعر أن هذه الفتاة تخبئ سرًا ما في سراديب أعماقها، إن قلب المرأة كالمحيط شديد العمق، غائر القاع، لا يسهل الوصول إليه.

إنها تفر من شبح ما.. وهذا يعني أنها على استعداد لقبول تلك النزوة.. كلانا يفر من شبح ما، ويبحث عن الملاذ، لسنا مثاليين، ولسنا ملائكة، بل نحن بشر، وأحيانًا نكون أشبه بالشياطين! لكننا بشر في النهاية!

لن أبرر لنفسي أي خطأ أقدم عليه.. إن كان ما أريده حقًا يمكن أن يوصف بأنه خطأ، لن أكون مثل ذلك الشاب الذي استغرق في الوهم ليوصل صراخه المكبوت لمن لا يسمعه، لن أفجّر، ولن أقتل، ولن أتوهم أني أفعل شيئًا من ذلك.. فقط سأحب.. وسأبحث عن المتعة والسعادة! ولن أكون مثل (رشيد غالي) أفر من البشر إلى صحبة الكلاب!

- "لنكن صادقين مع أنفسنا.. نحن بشر عاديون، لسنا أساطير مختلقة، ولا أبطال روايات مؤلفة، ولا نصلح لهذا الدور.. لسنا مثاليين، ولن نكون.. إذن.. لنتغلب على أشباحنا بالطريقة التي يراها كل منا ملائمة له"

نظرت لي نظرة غامضة، لكن شائقة، قبل أن تقول:-

- "أتفق معك في هذا تمامًا!"

صمتت برهة قبل أن تتخلص من بقايا دموعها، وتقول في تضرع:-

- "لكن بقي لي تساؤل أتمنى أن تجيبني عليه يا دكتور بوضوح: هل توجد لدى هذا الفتى فرصة لأن يشفى من الوهم، ويعود لعالم الواقع، ويتغلب على أشباحه؟"

هذا ما أسعى إليه حقًا، وإن كنت لا أدري كيف أصل إليه، لكن أعدك يا (جالاتيا) أني سأستعمل كل خبراتي ومعارفي في تحقيق ذلك، رغم إدراكي لصعوبته. لكني سأفعل ذلك من أجلك.

فقط من أجلك أنتِ!

***

--- تمت بحمد الله ---

الـفهـرس

الفصل الأول: صرخة	٢
الفصل الثاني: زيف	٣٦
الفصل الثالث: سقوط	٦٣
الفصل الرابع: اعتراف	٨١
الفصل الخامس: نزوة	١٢٧

رواية (أشباح)

تأليف: د. جابر القصاص

رقم الإيداع: 2024/29504

الترقيم الدولي: 5-52-9695-977-978

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف وأي إقتباس أو تقليد أو إعادة نشر دون موافقة قانونية مكتوبة من الكاتب يعرض صاحبه للمسائلة القانونية
والآراء والمادة الواردة وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالمؤلف فقط لا غير

(الطبعة الأولى ٢٠٢٤م)

أشباح

إنها تفر من شبح ما..

كلانا يفر من شبح ما، ويبحث عن الملاذ،

لسنا مثاليين، ولسنا ملائكة، بل نحن بشر،

وبعضنا يكون أشبه بالشياطين! لكننا برغم كل شيء بشر في النهاية!

ولكل إنسان منا أشباحه التي تحاصره وتطارده،

لكن قدرتنا على التحمل والمواجهة متفاوتة..

هناك من يصمد، ويواجه..

وهناك من يعمد إلى الفرار!

وهناك من يسقط.!!

.

د. جابر القصاص

أشباح

د. جابر القصاص